ابراهيم طوقان

في

وطنياته ووجدانياته

بقلم
البدوي الملثّم

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

ابراهيم طوقان

الإهداء

إلى (البطل العربي) المرتقب

لتحرير (فلسطين) :

الوطن المغصوب ،

من حثالات الشعوب ،

أهدي هذه (الفصول) !

(البدوي الملثم)

ابراهيم طوقان
شعبان

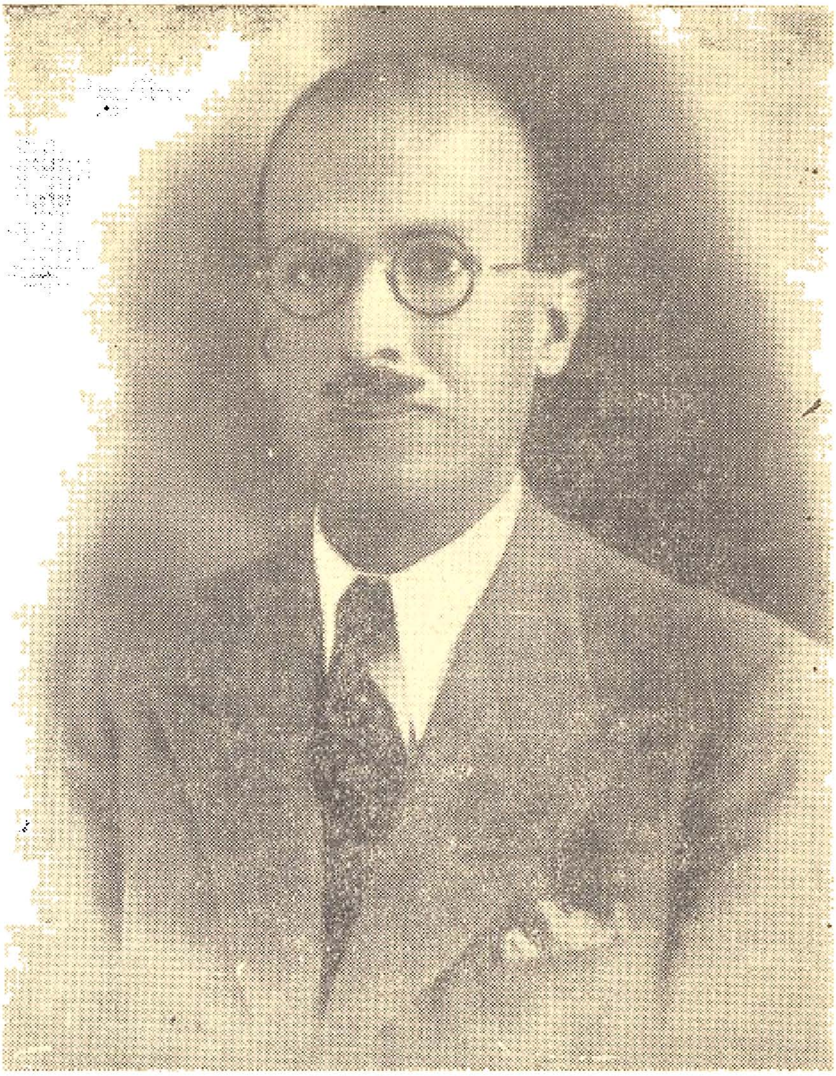
في

وطنياته ووجدانياته

بقلم

البدوي الملثم

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت



ابراهيم طوقان

١٩٠٥ – ١٩٤١

الطبعه الاولى

– ١٩٦٤ –

مقدمة الكتاب

بقـــلم

الأستاذ موسى سليمان

الشعراء على الأرض غرباء .

تُرى أهم أرادوها غربةً دائمة ، أم دفعتهم إليها القدرة التي لا مردّ لأحكامها ؟

وإبراهيم طوقان شاعر غريب غرّد في قومه فلم يسمعوا ولم يعوا ، لقد جرّح الغناءُ منه الحنجرة ، وبُحّ منه الصوت ، وأنهدّ منه الحيل حتى تلاشى الأمل ، وقومه عنه لاهون حتى ضاعوا وضيّعوا معهم وطناً أبيّاً عزيزاً على قلوب العرب أجمعين ، هو درّة الأوطان : فلسطين مهد الأنبيـــاء وكعبة الحجيـج على اختلاف النحل والاديان . . !

الشعراء على الأرض غرباء ، ولا يفهم غربة الشعراء إلاّ الشعراء ، ولا يستطيـع أن يتغلغل الى دواخل هذه الغربة فيفجّر عناصرها ، ويشرح كوامنهـــا ، إلاّ رجالُ الفكر وحاملو الرسالة وهم على مستوى الشعراء رهافة حسّ ، وعمق تفكير .

ولقد أُتيح لأدب فقيـــدنا الشاعر إبراهيم طوقـان من عرضه فأحسن

عرضه ، ودرسه مستجلياً خصائصه ، فحبّب الى الناشئة العربيـــة قراءته ودراسته .

ولكنّ شعر ابراهيم ، لم يحظَ بعدُ بمثــــل هذه الدراسة المطوّلة التي أرادها المؤلف في ناحيتين من شعر الفقيد الكبير : شعره الوطني وشعره الغزلي .

فلقد استطاع مؤلف هذا الكتاب ، وهو ابن فلسطين البارّ ، ورفيق مخلص من رفاق ابراهيم ، أن يصوّر حياة هذا الشاعر الذي مرّ بالأرض مرّاً سريعــاً .

لقد استطاع مؤلف هذا الكتاب الأديب يعقوب العودات ، أن يعطينا ، عن إبراهيم الشاعر ، صورةً وضاءةً مجلّـوةً جلاءً لا أصدق ولا أروع . فهو يرافقه مرافقة الأخ لأخيه ، والحبيب لحبيبه، يخطو معه حيث يخطو ، ويسيرُ حيث يسير من نابلس البلد المحافظ حيث ولد شاعرنا وقضى شطراً يسيراً من حياته ، الى القدس حيث التحق بمدرسة المطران الانـكليزيّة وأخذ بنظم الشعر الهزلي ثم الغزلي ، الى بيروت حيث تفتّح قلبُهُ « للطرف الناعس ، والقدّ المائس ! »

أولُ عهدي بفنون الهوى «بيروت»أنعِمْ بالهوى الأوّلِ !

وفي بيروت مدينة العلم والجامعات ، والصحف والمجلات ، اخذ يعبُّ ابراهيم من معين العلم في جامعة بيروت الأميركيّة ، فيشتدّ عودُهُ ، وتقوى شاعريتـه ، وتتفتّح على أجواء ليست لنابلس ولا للقدس مثلها من حريةٍ اجتماعيةٍ ومُنـــاخ فكريّ ، وجوٍّ مرح فرح يدعو أصحاب المواهب الشعرّية الى الإنعتاق والانفلات من قيود البيئات الضيّقة والتقاليد العتيقة !

في هذه الدراسة الموضوعيّة التي يقدّمها « البدويّ الملثمّ » ، غذاءً طيباً للجيل العربيّ ، حسنات جمّة لا يمكن تعدادها في مقدّمة ، على رأس هذه الحسنات أثرُ لبنان وجوّه وبيروت ومحيطها في شاعرنا الفقيد الغالي .

لقد كتب ابراهيم يعترف لصديقه الدكتور عمر فرّوخ بأنّـه كونٌ جسمه

في القدس ٥ سنوات وفي بيروت ٨ سنوات !

ولا شكّ في أننا ، نحن في لبنان ، نفرح ونعتزّ بأن يكون لهذا الجبل الأخضر مثلُ هذا الأثر في نفوس الشعراء الموهوبين أمثال ابراهيم طوقان وأن يعمل عمله في جلاء شاعريتـه ، وانفتاحها ، وانطلاقهـا فتترك لنا الشاعرُ قصائد تعبق حبّـاً وتفيض أسىً رغم عمره القصير ، رغم المرض الذي هدّه فقصفه وهو في ريعان الشباب !

لم يجيء إبراهيم بشعر غزلي عاطفيّ عميق ، وهو الذي مـا ظهر على مسرح الشعر ، حتى توارى في عمر الزهور . ولكنه كتب نفسه على القرطاس. ولكنه صوّر قلبه في شعره ، قلبـه الذي ينبض نبضاتـه فيحسّ به ابراهيم احساسه هو ، لا إحساس من سبقه من الشعراء . فليلاه هي « ليلى على شواطىء بيروت » وفوز هي تلك التي عرفها في بحمدون ، وبنت الوادي المقدّس ، وادي الرُمّان هي من لحمٍ ودمٍ ألهمته فتغنى بها كأحسن ما يكون الغناء :

جنى عليكِ الحسنُ يا وردتي وطيبُ ريّاكِ فذقتِ العـذابْ
لولاهما لم تُقطعي غضّـةً بل لانطوى في الروض عنك الشبابْ

وصورةٌ حلوةٌ ثانية من الصور الكثيرة الحلوة في هذا الكتاب براعة المؤلف في الأشارة الى هروب الحياة من أمام الشاعر ، والشاعر يلحق بها لاهثاً حتى خارت قواه فاستسلم ، وهو يصرخ من أعماقه :

من مُعيـدٌ مسرّتي والزمانَ الذي غَبَرْ ؟!

. . .

كأنيَ لم أنزل دياركِ مرّة ولم ألقَ في أهليكِ حُباً ولا ندى

. . .

لم يُمتَّعْ بنشوة الحبْ حتى أشرعتْ شوكةٌ تلظى شباها

ويموتُ شاعرُ الهوى والوطنية ابراهيم طوقان وهو في السادسة والثلاثين من عمره كأكثر الشعراء الموهوبين الذين لا يكاد يظهر نبوغهم حتى يتوارى !

بقي الوجهُ الآخر من شعر إبراهيم وجهُ الشعر القوميّ الذي جعل منه شاعر فلسطين الذبيحة. يظهر ابراهيم في هذا الشعر واضحاً مخلصاً في وطنيته وضوح نفسه الحسّاسة الشاعرة . أما عروبتُهُ فهي خالصة من كلّ ما يعكّرها، طهرّتها تربيتُهُ البيتيّة المنفتحة ودراسته العالية في معاهد حرّة التوجيه والتفكير فجاءت عروبةً صافيةً خالية من كلّ مطمع فرديّ ، أو غرض تجاري أوشهرة دنيويّة !

ونظم إبراهيم الشعر الوطني في مناسبات عدّة – وما أكثرها ! فجاءنا بقصائد ما زلنا نردّدها والألم يحزّ في نفوسنا على فلسطين التي لها عنها ذووها فوقعت ضحية لهوهم وتخاذلهم :

وطنٌ يُبـــاع ويشترى   وتصيح: «فليحيى الوطن!»

وفي رائعته التي رثى بها شهداء « الثلاثاء الحمراء » شرارات شعريّة هي دروس عميقة في القومية والوطنية :

فخذِ الحياةَ عن الطريقِ الأقصرِ

. . .

قسماً بأمكَ عند موتك وهي تهتف بالنشيدِ

وترى العزاء عن ابنها   في صيته الحسنِ البعيدِ
ما نالَ من خدم البلادَ   أجلُّ من أجر الشهيد

وترك لنا ابراهيم في الشعر الوطني القوميّ أكثر من قصيدة تمور بالعاطفة الجيّاشة وتتلظّى نوراً وناراً ، لتنير دروب الوطنية أمام العرب أجمعين .

فقصيدتاه : « الفدائي » و « الشهيد » قنبلتان محرقتان حشوهما عاطفة الشاعر المتأججة مرارة وغضباً وانتقاماً !

وازداد حزن الشاعر ، وتمرمر حنقاً على شعبه وعلى بني وطنه وهو يراهم يقتتلون من أجل لا شيء، يختصمون من أجل صغاراتهم التافهة وحزبياتهم البغيضة، وخلافاتهم الصغيرة وتطاحنهم العصبيّ فيصرخ متوجعاً :

أنادي « أمينـــاً » أم أهيبُ براغبِ !

ولقد وفـّق صاحب هذا الكتاب في اعطائنا صورة جليّة عن الأراضي العربية في فلسطين وهي تتسرب الى اليهود ، وكيف أن بعض اللبنانيين كان يسيل لعابهم « على النعمة الزائفة الزائلة » التي أبطرتْ الفلسطينيين ردحاً من الايام !

أما شاعرنا فلم يسكت عن هذه المهازل وثار ثورته العربية ضد السماسرة : سماسرة الاراضي... اولئك الذين يعملون على بيع اراضيهم، فيبيعوا معها شرفهم، ووطنيتهم ، وبلادهم !

يقولون في بيروت : أنتم بنعمـة تبيعونهم تُرباً ، فيعطونكم تبرا
شقيقتنا مهلًا : متى كانَ نعمة هلاكُ ألوف الناس من واحد أثرى؟
وباذل هـذا المـال يعلم أنه يسلـّم باليمنى الى يـده اليسرى
على انها أوطاننا ... ما كنوزهُمْ وأموالهم حتى تساوي بها قدرا !

ولم يكن يترك مناسبة تسنح دون أن يندّد بالمسؤولين « والزعمـاء » والحكومة المنتدبة من أجل ما يرتكب جميع هؤلاء من خزي وعار في بيعهم أراضيهم من عدوّهم اللدود الذي ترعـاه بعين الحب والرضى الدولة المنتدبة فتخون حلفاءها العرب وتغدر بهم غدر القويّ بصديقه الضعيف .

يقول الشاعر مخاطباً دولة الانتداب :

أغدري غدر القويّ بالحسين بن علـيّ
لستِ بالخِلّ الوفيّ للحليفِ العربي
فاملأي التاريخ عاراً !

ولكنّ العلة الكبرى كامنة فينا ، كامنة في زعمائنـا ، في الذين يحملون علم القيادة :

وطني أخاف عليك قوماً اصبحوا يتساءلون : من الزعيمُ الأليقُ ؟

. . . .

لا تلجأنّ إذا ظُلمتَ ، لمنطقٍ فهناك أضيعُ ما يكون المنطقُ !

يرحم الله ابراهيم، شاعر فلسطين الذبيحة، الذي فتح عينيه على المأساة ، وعاش في قلب المعركة وقضى وهو ينشد :

لا تفتحوا باب الشقـاقِ فأنه باب على سـود العواقب مُغلقُ
والله لا يُرجى الخلاصُ وأمركم فوضى ، وشملُ العاملين ممزّقُ !

بيروت ـ الجامعة الاميركية موسى سليمان

رشحات قلم

ربطتني بفقيد الادب العربي المرحوم (ابراهيم طوقان) صداقة عميقة الجذور ، تعود أصولها الى عهد إشرافه على البرامج العربية في – محطة الاذاعة الفلسطينية – ، وظلت تلك الصداقة تقوى وتشتد الى ان لقيت (ابراهيم) يوماً في عمان معتمراً بغداد ، فأقبل عليّ مُعانقاً ، وكاد زنداه يُطبقان على عُنُقي لسبب خفيّ أجهله… ولم أدرِ ان البينَ سيضرب بيننا أبد الدهر !

سار (ابراهيم) في درب بغداد والهمُّ ملء اهابه.. وسرتُ في دربي ، مُنشداً نفسي قول ابن زريق البغدادي :

ودّعتهُ وبودّي لو يودّعني صفو الحياة واني لا أودعه !
وكمْ تشبّثَ بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهلات وأدمعه !

ولم تمضِ أسابيع قلائل حتى جاءَني نعي ابراهيم من القدس(1) التي أحبَّها وتمنّى لو يمضي فيها سحابة عمره !

---

1 – في ١٤ أيار ١٩٣٣ كتب «ابراهيم» من «نابلس» الى صديقه الدكتور عمر فروخ في «بيروت» رسالة جاء فيها قوله :

« ... وأنا يا عمر لم أكون جسمي في نابلس» بل في «القدس» خمس سنوات ، وفي «بيروت» ثمان ، من سن ١٣–٢٧ ! »

لكنّ زبانيـة الشقاق والنفاق ، ضيقوا عليه الخناق ، فودّع (فلسطـــين) مُكرهاً الى العراق ، وهناك ساءت صحته ، واستفحلت علـّته ، فعاد الى القدس الثكلى ليقضي فيها نحبه ، بين (أم) رؤوم ظلـّت تبكي عزيزاً غـاله الردى في ريّق العمر ، و (شقيقة) تذرف دموع الأسى على أخ ولىّ في ربيـع الحياة !

وفي اليوم الثاني عشر من شهر أيار ١٩٤١ خبا وهج ذلك الشعاع السـاطع ، وصاحبه يتعلق السادسة والثلاثين من سلم العمر ، وانطلق البلبل الصدّاح الى الملاء الاعلى هرباً من الارض وأناسيها ، وتطلعاً الى (رقدة طويلة) تمناها في غد :

يلذّ لي يا عين ان تسهدي	وتشتري الصفو بطيب الكرى
لي (رقدة طويلة) في غـد	لله مـا أعمقهـا في الثرى !!
ألم تريْ طير الصبى في يدي	أخشى مع الغفلةِ أن ينفرا
طال جناحاه وقـد يهتدي	الى اعالي دوحه مُبكرا !!

. . .

٢ ـ يُشبه (شعر) ابراهيم طوقان (مثلثاً) متساوي الساقين ، تُمثل الساق الاولى شعره (الوطني) وتمثل الثانية شعره (الوجداني) أما قاعدة ذلك (المثلث) فتمثل ما لابراهيم من دعابات مستحبة ، ونقدات لاذعة ، أرسلها في مجالات النكتة والمباسطة والهجو ، وهو غير قليل !

٣ ـ قدّر الذين جاذبوا (ابراهيم) حبل المودة وعرفوه عن كثب وسمعوا صرخاته الوطنية ، وقرأوا قصائده القومية ، ما كان لتلك الصرخات المدوية من أثر بعيد في شحذ الهمم وتفتح الوعي ، وتنبيه الافكار الى ما يُراد بـ (فلسطين) وبسائر الاقاليم العربية ، من جور واضطهاد ، وذل وأصفـاد ، تمهيداً لتهويدها وتقديمها لقمة سائغة لشذّاذ الآفاق الذين ضربوا في دنيا التشرد عرضاً وطولاً ، وانطلقوا من قماقمهم يتطلعون الى (فلسطين) وسواها من دنيا العرب كوطن يجمع شتات (صهيون) من (النيل) الى (الفرات) !

٤ – نبهت تلك الافكار نفراً واعياً من العاملين في الحقل الوطني ، وأضرمت نيران الثورات على أديم (فلسطين) وهزّت مشاعر (ابراهيم) وهـو الشاعر الرهيف الحسّ ، الصليب العود ، فهبّ الى استنفار قومه وتنبيههم الى مـا يراد بهم من جور وإذلال ، بشعر وطني عارم ، رأى فيه المستعمرون لهباً يؤجج الوعي القومي ، ويفسد خططهم فجنّبوا (ابراهيم) الاشراف على القسم العربي في – دار الاذاعة الفلسطينية – وضيقوا عليه الخناق ، وحملوه على الهجرة الى العراق ، وهناك عاوده داؤه ، وعزّ دواؤه فآب الى (فلسطين) ليلقى ربّه ، ويقضي نحبه !

ووفاءً لابراهيم أضع هذه (الفصول) ليقف القارىء على (وطنيـاته) تلك الصرخات التي فجّرها (ابراهيم) حمماً في الوطن المغصوب وعلى (وجدانياته)وهي جانب هام من جوانب عبقريته الفسيحة ،ورجائي ان تتقبل روحه هذه (الفصول) الشذية الفوح ، الندية الاكمام من الأسيف :

عمان – الاردن

البدوي الملثم

وَطنيات ابرَاهيم

تمهيد : في العقد الأول من القرن العشرين ولد ابراهيم عبد الفتاح طوقان في نابلس وسياط الأتراك تلهب ظهور العرب ، وأعقاب البنـادق تدبغ جلودهم ، وأعواد الخيزران تتلوّى على أقفيتهم !

وفتح شاعر الأمة المشرّدة عينيه على ظلامات مرّة انتابت قومه في كافـة أمصارهم ، فآلمته السياط ، وأفزعته البنادق ، وأرهبته أعواد الخيزران .. وشدن (ابراهيم) وترعرع بين عهدين أسودين :

الأول : عهد الاتراك وفيه صبّ الطورانيون جـام المصائب والويلات على العرب ،

الثاني : عهد الأنكليز وفيه حكموا (فلسطين) حكم العبيد ، بالنـار والحديد ، فروّعته المظالم وأفزعته المعتقلات ، وتمنّى لو لم يولد ويعش في عهـدين أسودين اتّسما بالاغلال والاصفاد ، والجور والاضطهاد ، ليرى امتـه دامية الجراح ، مهيضة الجناح !

دراسته الابتدائية : وفي نابـلس ، مسقط رأسـه ، التحق (ابراهيم) بـ (المدرسة الرشادية الغربية) وأمضى فيها سني الحرب العالميـة الاولى (١٩١٤- ١٩١٨) وكانت «تنهج»[١] في تعليم اللغة العربية نهجاً حديثاً ، لم يكن مـألوفاً في مدارس نابلس ، في العهد التركي ، وذلك بفضل بعض المدرسين النابـلسيين الذين تخرجوا في (الازهر) وتأثروا في مصر بالحركة الشعرية والادبية ، التي كان يرفـع

---

(١) – (أخي ابراهيم) فدوى طوقان ص-٩

لواءَها (شوقي) و (حافظ) و (مطران) ، فأشاع هؤلاء المدرسون روح الشعر والأدب الحديثة ، وأسمعوا الطلاب ، للمرة الاولى في حياتهم الدراسية ، قصائد (شوقي) و (حافظ) و (مطران) وغيرهم ، وفتحوا أذهانهم على اسلوب انشائي حديث ، فيه رونق وله حياة ، يختلف اختلافاً كبيراً عن ذلك الأسلوب القديم الذي كان ينتهج في مدارس نابلس والذي لم يكن ليخرج عن كونه أسلوباً تقليدياً عميقاً ، لا تأثير له ، ولا غناء فيه !

ومن هؤلاء المدرسين المجددين المرحوم الشيخ ابراهيم ابو الهدى الخماش (١) وكان جريئاً صريحاً ، ذا نزعة عربية صميمة ، ومبادىء وطنية قومية ، يجهر بها ويبثّها في النفوس عن طريق خطبه وتدريسه ومجالسه ، وذلك في عهد كان الجهر بمثل تلك المبادىء يودي باهله الى المهالك ، وقد التحق فيما بعد بالثورة العربية تحت لواء المغفور له الملك فيصل الأول !



الاستاذ الشيخ فهمي هاشم

ومن هؤلاء المدرسين أيضاً صاحب الفضيلة الشيخ فهمي هاشم، وهو عالم فاضل أديب يقول الشعر كلما طما بـه ، فيجيد القول ، ولقد كان تأثير هؤلاء المدرسين المجددين في (ابراهيم) كتأثير عناصر التربة الصالحة في الغرس الصغير الذي لم تستحكم اصوله بعد ! »

وفي عهد دراسته الابتدائية كان شاعرنا مولعاً بالقرآن الكريم ، يقرأه على عمته (كريمة) خصوصاً في شهر رمضان المبارك وفي ذلك يقول :

---

(١) – تلقى علومه في (الازهر) والتحق بالثورة العربية التي قادها الملك (فيصل الاول) =

« الجميل [1] في رمضان عندي خاصة انني اقرأ القرآن فيه ، واقرأه كله ، هذا ما أصنعه في كل سنة وأتلذّذ به فأصقل به لغتي ، ونعم صقال القرآن ، وتستوقفني بعض التراكيب فارجع الى كتب البلاغة فأتفقّه بكشف اسرارها وتشكل عليّ بعض المعاني فارجع الى سيد المفسّرين ، استاذ الدنيا ، جار الله محمود الزمخشري ، فأصدر عنه ريّانَ شبعانَ وأتنبّهُ الى طرفة تاريخية فأرجع الى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، فأنسى نفسي بين أحاديثه ورواياته ، هذا فضل رمضان عليّ ، وهكذا أحسن استغلال شهر كامل في مدينة نابلس !».

دراسته الثانوية : وما ان أتمّ ابراهيم دراسته الابتدائية حتى اعتمر القدس وانتسب لـ (مدرسة المطران) وكان شقيقه أحمد قد سبقه الى (الكلية الانكليزية) وتلقى علومه على لغوي فذّ هو المرحوم (نخله زريق [2]) ذلك العربي المؤمن الذي عاش دهره مزهواً بامته ، فخوراً بعروبته ، غيوراً على سمعتها ، متعصباً للغتها ، فجاذبه ابراهيم حبل المودة وأخذ يتردد عليه مع شقيقه أحمد ويرهف السمع الى الاحاديث والروايات التي كانت تدور في مجالسه وندواته ، حتى ازدادت ثروة ابراهيم الادبية ووقف على أوابد اللغة ، فصقل لفظه ، ورق نثره ، وميّز بين صحيح الشعر وزائفه ، حتى غدا مرجعاً لغوياً لابناء مدرسته !

= وعمل في الحكومة الفيصلية بدمشق وبعد زوالها انتسب للحكومة الاردنية وعين قائم مقام في جرش في عام ١٩٢٢ وقتل خطأ برصاصة من صديق له .

(١) – (شاعران معاصران) : الدكتور عمر فروخ ص – ٧٢

(٢) نشأ في حي (المزرعة) من أحياء بيروت وعمل في الحقل الثقافي بكل تجرد واخلاص ، ولحق بربه في عام ١٩٢١ بعد جهاد حافل بجليل الاعمال .

جاء الى القدس في عام ١٨٨٩ وعين معلماً للغة العربية في (الكلية الانكليزية) وكان مسكنه في القدس ندوة أدبية يجتمع فيها رجال القدس ومن زينة طلابه : خليل السكاكيني ، بولس شحاده صاحب جريدة (مرآة الشرق) ، الدكتور خليل طوطح ، جريس وحبيب الخوري ، فرج فرج الله ، جورج متى صاحب مجلة (الشمس) ، الدكتور حبيب سالم ، واليه يعزى الفضل في بعث اللغة العربية بعد ان كانت ساكنة في كتاتيب جامدة

وكان يصغي اليه وهو يتدفق في حديثه عن الأدب والشعر والعرب مما كان له شأن في ايقاظ وعي ابراهيم على مؤثرات أدبية وقومية اخرى .

دراسته الجامعية : أمضى ابراهيم أربعة أعوام في (مدرسة المطران) بالقدس (١٩١٩ – ١٩٢٣) والتحق بالجامعة الاميركية في بيروت حيث قضى فيها ستة أعوام (١٩٢٣-١٩٢٩) وخلال هذه المدة « أدرك[1] شاعرنا عمر الشباب ورأى ما يصنع المستعمرون في بلاده فارتسمت في أعماق نفسه أول الصور المؤثرة التي كان لها أن تبدو بعدئذ تلاحين وطنية في شعره ، ورنّات حماسية في أناشيده ! »

موطني : وفي هذه الحقبة نظم شاعرنا قصائد وطنية ، عطرة الأنفاس ، منها نشيد (موطني) وقد ذاع وشاع في سائر الأقطار العربيـة ، المتحفزة للوثوب ، المتطلعة الى فجر يوم جديد :

موطني الجلالُ والجمالُ والسناءُ والبهاءُ في رُباكْ!
والحياةُ والنجاةُ والهناءُ والرجاءُ فيهواكْ!

هل أراكْ
سالماً منعماً وغانماً مكرماً
هل أراكْ في عـــلاكْ
تبلغ السماكْ
موطني !

موطني الشبابُ لن يكلَّ همّهُ أن تستقـلّ أو يبيدْ

---

١ – (ابراهيم طوقان) : الدكتور زكي محاسني ص – ١٥ .

نستقي من الردى ولن نكون للعدى كالعبيدْ

لا نريدْ

ذُلَّنا المؤبدا وعيشنا المنكدا

لا نريــدْ بل نعيــدْ

مجدَنا التليد

موطني !

موطني الحسامُ واليراعُ لا الكلامُ والنزاعُ رمزنا

مجــدنا وعهــدنا وواجب الى الوفا يهزنا

عِزُّنا

غايةٌ تشرّفُ ورايةٌ ترفرفُ

يا هنــاكْ في عــلاكْ

قاهراً عِداكْ

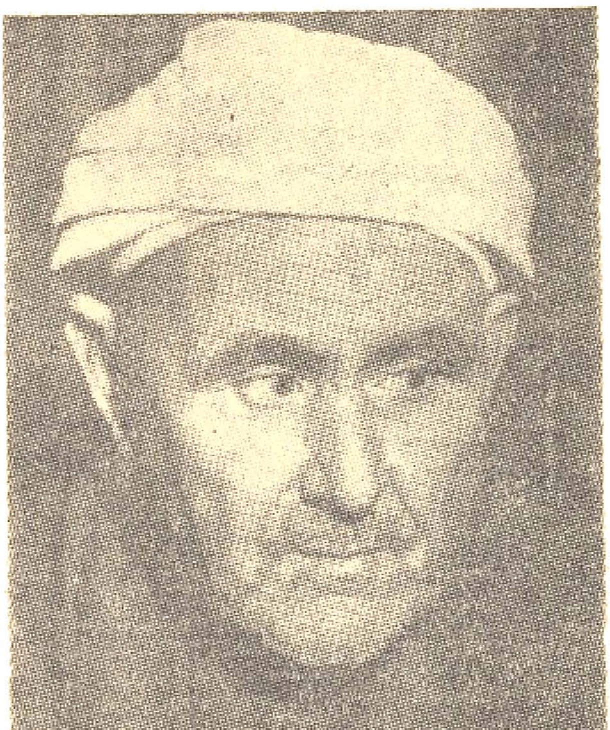
موطني !

حتى الزلزال العنيف الذي اجتاح مدن فلسطين والأردن في عام ١٩٢٧ ودكّ مباني نابلس دكاً عنيفاً ، لم يُنسِ إبراهيمَ (فلسطينَ) وطنه الغالي ، بل صوّرَ شاعرنا المحن التي انتابتها ، من زلزال قاصف ، عصف بمدنها عصفــاً ، الى جراد زاحف ، طغى على سهولها وجبالها وعبث بزرعها وثمارها ، إلى وباءٍ جارف ، غشى بني وطنه وكان نذير شؤم وتعاسة :

دخلاءَ البلاد ، إن فلسطين لأرض كنوزها من نكالِ
تبرُها صفرةُ الردى فخذوه عن بنيها ، وآذنوا بارتحالِ
ربِّ لطفاً ! فقد أتانا نذيرٌ بوباءٍ من بعد هذا الوبال !
وجرادٌ ، وكلُ آتٍ قريبٌ أوَ بعد الامحال من أمحال ؟!
ربِّ إن الكروبَ تترى علينا حسبنا كرب (هجرة) و (احتلال) !

« ما (١) اجتمعتُ اليه يوماً إلا وسكرتُ بشعره الذي يسيل عذوبة وحباً ، وما سمعته ينشد (**موطني !**) إلا وأحسستُ انه يجب أن يستقلّ العرب... وشعرت أن هذا الشاب الهزيل قد تحوّل إلى مارد جبار ، ينفث ناراً ويرسل حمماً ! » .

نشيد عبد الكريم : وفي الثورة التي أضرم نارها، وأجّج أوارها ، عام ١٩٢٤ بطل المغرب العربي المغفور له الأمير عبد الكريم الخطابي، وشنّها غارة شعواء على فرنسا واسبانيا ، دولتي البغي والطغيان ، تسابقت كبريات صحف العالم إلى نشر أخبارها، وصنّفَ بعضهم الكتب والروايات في وصف بطولات المناضل العربي وجرأته ووقوفه في وجه الاستعمار ، وقفة القرم الجبار ، فنظم (إبراهيم) (نشيد بطل الريف) مفاخراً بالبطل الحلاحل ، الذي صفع الظلم وأفزع الظالمين بحفنة من المناضلين المؤمنين !


الأمير عبد الكريم الخطابيَ

«١» – (شاعران معاصران) ص – ٦٧ .

« ... في أحد[1] أيام الشتاء من عـــام ١٩٢٤ اجتمع ابراهيم طوقـان وعبد الرحيم[2] قليلات ومحمد فلفل في (مقهى الكاريون) أو (قهوة المرصـد) ببيروت ، وكانت البلاد العربية تعصف يومذاك باخبار انتصارات العرب في شمالي افريقية على الجيوش الاسبانية والجيوش الفرنسية ، وخطر لابراهيم في هـــذا الاجتماع ان يضع نشيداً لهذه الثورة أو يدوّن صدى هذه الحرب الضروس ، في نفوس العرب الواثبين الى التحرر من النير الاجنبي في كل مكان ، فكان هذا النشيد الذي وضعه ابراهيم في تلك الجلسة التاريخية » .

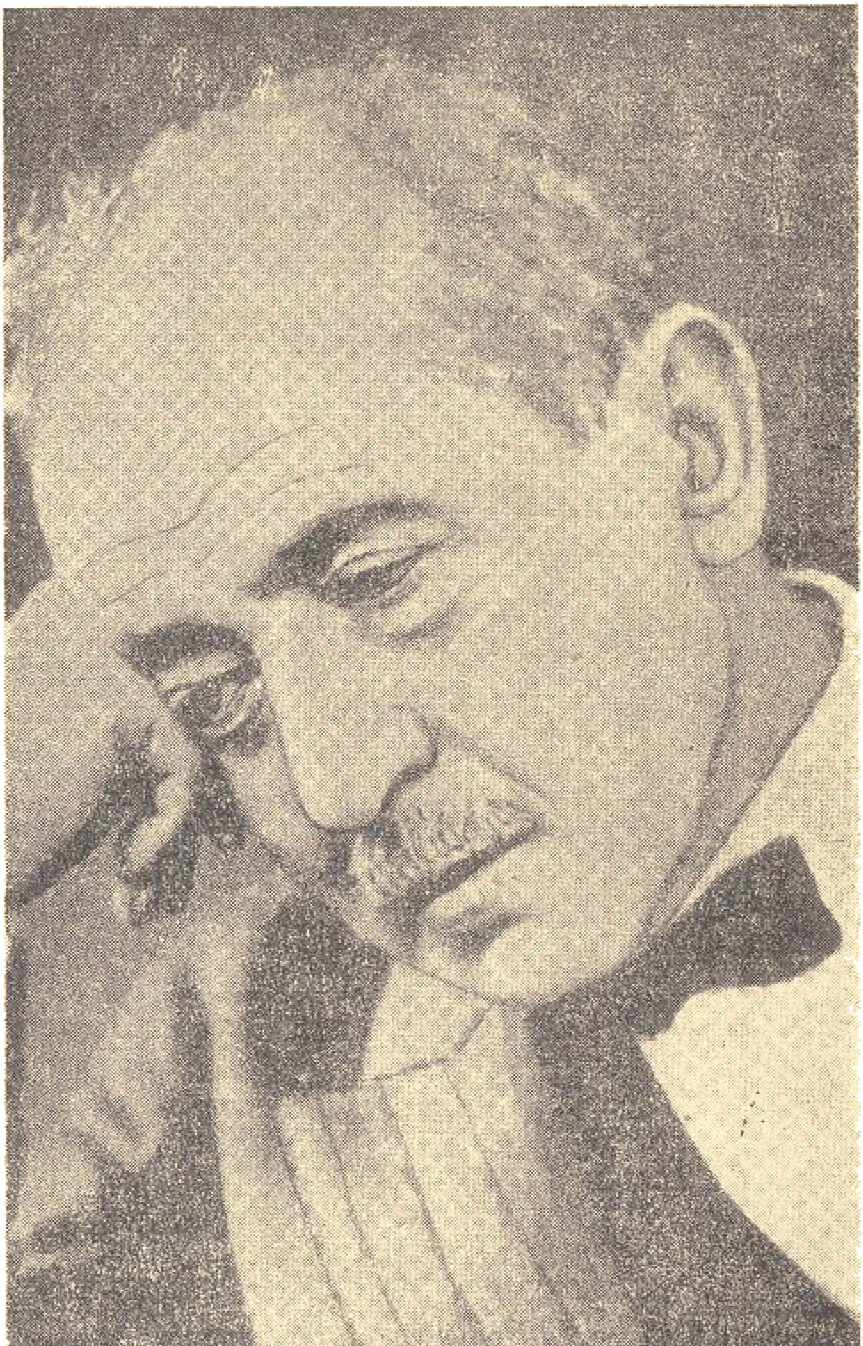
في ثنايا العجاجْ والتحام السيوف
بيــنما الجوُداجْ والمنايـــا تطوف
يتهـــادى نسيمْ فيه أزكى سلامْ
نحو (عبد الكريم) الامـــير الهمامْ
ريفُنا غابُنا نحن فيـه الأسود ريفُنا نحميـــه
كلُنـــا يعجبُ بفتـى المغـــرب
كـلنُـا يطربُ لانتصـــار الأبيّ
أين جيـش العـدا انْ دعـا للجهاد
أصبحوا أعبـــدا بالسيـوف الحـداد
ريفُنا غابُنا نحـن فيه الأسود ريفنـــا نحميه
طالمـا استعبـدوا وأذلـّوا الرقـابْ
أيهـا الأيّـدُ جاءَ يومُ الحسابْ
فليذوقوا الزعافْ بالظبي والأسـلْ
ولنعلّ الهـتافْ للامير البطـــل
ريفنا غابُنا نحـن فيه الأسود ريفُنــا نحميـه

---

(١) – (شاعران معاصران) ص – ١٢٢

(٢) –ولد في بيروت عام ١٨٨٦ وكان شاعراً خفيف الروح، عربي النزعة والجهاد، وشغل طائفة من الوظائف في (حكومة لبنان) وله ديوان شعر باسم (الهيام) وتوفي عام ١٩٤٢

شوقي في فلسطين : وفي عام ١٩٢٨ عزم أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي على زيارة فلسطين ، فهبّ الادباء وحملة الاقلام الى اعداد العدة لاقامـــة المهرجانات حفاوةً بالضيف الكبير ، لكن الزيارة لم تتم فنظم ابراهيم قصيـدة هَدَفَ من



أمير الشعراء أحمد شوقي

ورائها الى إثارة مشاعر شوقي لينظم شعراً في فلسطين وفي قضيتها التي لم يروِ التاريخ أظلم منها قضية !

ودونك ما نظم (أبو جعفر) بعنوان (حطّين) :

أهـلًا بربِّ المهرجانِ ... أهلًا بنابغـة الزمانِ
ملكَ القلوبِ المستقلّ ... بعرشها ، والصولجان
ومتوج حـالت أشعـةُ ... تاجـهِ دون العيانِ
أهلًا بـ (شوقي) شاعرِ ... الفُصحى ومعجزةِ البيانِ
يافرقدَ الشعراءِ كمْ ... من فرقـدٍ لعـلاك رانِ
علمـا الخلود مُنَشرانِ ... على سريرك يخفقانِ
جبريـلُ ينفخُ في فؤادك ... ما يفيضُ على اللسانِ !
وأمدّ بالنفحاتِ روحك ... حـين طوّفَ بالجنانِ
فاذا بأبكـار الجِنانَ ... لديك أبكار المعاني !
يا باكيَ الفيحـاءِ حـين ... أبت تقيمُ على الهوانِ
أيـامَ كانـت وردةً ... بدمِ البواسل كالدهانِ
أرسلتَ عن (بردى)[1] ... سلامكَ في لظى الحربِ العوانِ
وذرفتَ « دمعاً لا يكفكف» ... هيجتـهُ الغوطتـان
البيتُ مما قلتَهُ ... فيـه تخايل جنتانِ
أبداً رثاؤك فيها ... عينان دمعاً تجريان
هذا وإنّ جناهما ... للصعبُ فأعجبْ وهو دانِ

. . .

عرِّجْ على (حطين) واخشعْ ... يُشجِ قلبك مـا شجاني
وانظرْ هنالك هل ترى ... آثار (يوسفَ)[2] في المكانِ

«١» – إشارة إلى قصيدة «شوقي» ومطلعها :

سلام من صبـا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق

«٢» – هو يوسف بن أيوب ، صلاح الدين الايوبي

أيقظْ (صلاحَ الدين) ربَّ التاجِ والسيف اليماني
ومثيرَها شعواءَ أيوبيَّةَ الخيل الهجانِ
بالعاديات لديه ضُبحاً والأسنةُ في اللبانِ
ترمي بمارجها وما غيرَ العجاجةِ من دُخانِ
في كل خطّارٍ على الأخطارِ صَبّار الجنانِ
حلقاتُ أدرعِهمْ قيود الموتِ في دركِ الطعان
وسيوفُهُم ماءُ الحميمِ على مضاربهنَّ آنِ
والخيلُ طوعُ كماتها في النقعِ مُرخاةِ العِنانِ
لا تنثني أو تحرز القصباتِ في يومِ الرهان !

. . .

(حطينُ) يومُكِ ليس يُنكِرُ شاهديه الخافقانِ
تتطايرُ الأرواحُ فيه من السنانِ الى السنانِ
وترى السهامَ مُقوماتٍ فوقَ أجسامٍ حوانِ
فإذا أديمُ الأرضِ أحمرُ من دمٍ لإفرنجٍ قانِ
يُسقونَ من كأسِ الردى ومليكهم ظمآنُ عانِ
حتى انجلى رَهجُ الوغى والنصر مرموقُ العنانِ
ومشى (صلاحُ الدين) تحت لوائه في مِهْرَجان !
وعلا الأذانُ وَرَجّعَتْ تكبيرَهُ شُرَفُ الاذان

. . .

أمقوّضَ الدولاتِ مَنْ لي مِنْ صروفك بالأمانِ ؟!
دُكَّتْ صروحٌ ما بنى أمثالها في المجد بانِ !

جلَّ المصابُ (أبا عليّ [١]) فابكِ هاتيكَ المغاني !
ذهبَ الذين عهدتهم لا يصبرون على الهوانِ
في مصر يطمع (أشعبٌ) وهنا تبارى (أشعبان [١])
وهنا التخاذلُ في الشدائد والتشاؤم والتواني
والنفسُ يقتلُ عزمَها طولُ التعللِ بالأماني !

. . .

خُذْها إليكَ وأنت عنها يا أمير الشعرِ غانِ
حسناءَ فيها للصبا نَزَقٌ على خَفَرِ الحسانِ
نفحاتُها من(كرمةٍ) [٣] تُعزى الى(الحسن [٤] بن هاني)
هيهات تبلغُ شأوَكَ الشعراءُ يوماً أو تداني !!

وطنٌ يُباعُ ويشترى : وفي عام ١٩٢٨ ركدت الحركة الوطنية في فلسطين وران عليها الوجومُ وسادَها صمتُ أهل الكهف ... وارتفعت أسهم السماسرة والدجالين ورجحت موازين دُعاة الوطنية الزائفة فألقى ابراهيم في حفلة العام الدراسي التي أقامتها (كلية النجاح الوطنية) في نابلس قصيدة من عيون الشعر الوطني وقد اشتهر منها هذا البيتُ وذهب مذهب المثل :

(وطنٌ) يُباعُ ويُشترى وتصيحُ : « فليحيى الوطن !»

أما القصيدة فهي :

كفكفْ دموعَكَ ، ليس ينفعُكَ البكاءُ ولا العويلُ !

«١» – كنية أمير الشعراء « أحمد شوقي »
«٢» - إشارة الى الاستعمار قديماً في مصر والى الاستعمار والصهيونية في فلسطين
«٣» – يقع المنزل الجميل الذي كان يملكه المرحوم «أحمد شوقي» في المطرية وأطلق عليه أمير الشعراء أسم « كرمة ابن هاني» ذلك لأن حديقة المنزل حافلة بدوالي الكرمة والشاعر يقول : « ان تكن شاعراً فكن كابن هاني ! »
«٤» – هو الشاعر ابو نواس الذي نشأ في العصر الذهبي للخلافة العباسية

وانهضْ ولا تشكُ الزمانَ ، فما شكا إلا الكسولُ
واسلكْ بهمتكَ السبيلَ ، ولا تَقُلْ كيف السبيلُ ؟ !
ما ضلَّ ذو أملٍ سعى يوماً وحكمته الدليلُ
كلاّ ، ولا خاب أمرؤٌ يوماً ومقصدُهُ نبيلُ

. . .

أفنيتَ يا مسكينُ عمرَكَ بالتأوهِ والحزَنْ
وقعدتَ مكتوفَ اليدين تقولُ : حاربني الزمنْ
ما لم تقمْ بالعبءِ أنتَ ، فمن يقوم به اذنْ ؟ !

. . .

كمْ قلتَ : « امراضُ البلاد » ، وأنتَ من امراضها
والشؤمُ علَّتُها ، فهل فتَّشتَ عن اعراضها ؟ !
يا مَنْ حملتَ الفأسَ تهدِمُها على أنقاضها !
أقعدْ فما أنت الذي يسعى الى انهاضها
وانظرْ بعينيكَ الذئابَ تَعُبُّ في أحواضها !

. . .

وطنٌ يُباعُ ويُشترى وتصيحُ : «فليحيى الوطنْ !»
لو كنتَ تبغي خيرَهُ لبذلتَ من دَمِكَ الثمنْ
ولَقُمْتَ تضْمِدُ جرحَهُ لو كنتَ من أهلِ الفِطَنْ

. . .

أضحى التشاؤمُ في حديثكَ بالغريزةِ والسليقهْ

مثل الغرابِ ، نعى الديار واسمع الدنيا نعيقَهْ
تلك الحقيقةُ ، والمريضُ القلبِ تجرحُهُ الحقيقهْ
أملٌ يلوح بريقُهُ فاستهدِ يا هذا بريقَهْ
ما ضاقَ عيشُكَ لو سعيتَ له ، ولو لم تشكُ ضيقهْ

. . .

لكنْ توهَّمت السَّقامَ ، فاسقمَ الوهمُ البدنْ
وظنتَ انك قد وَهَنْتَ فدبَّ في العظم الوهنْ
والمرءُ يُوهِبُهُ الردى ما دام ينظرُ للكَفَنْ
اللهَ ثم اللهَ ما أحلى التضامنَ والوفاقا !
بوركتَ مؤتمراً (١) تألّف لا نزاعَ ولا شقاقا
كم من فؤادٍ راقَ فيه ، ولم يكنْ من قبلُ راقا
اليوم يشربُ موطني كأسَ الهناءِ لكم دهاقا
لا تعبأوا بمشاغبينَ ترونَ أوجهَهم صفاقا

. . .

لا بُدَّ من فئةٍ – أجلُّكمُ – تلذُّ لها الفِتَنْ
تلك النفوسُ من الطفولةِ أرضعَتْ ذاكَ اللبنْ
نشأتْ على حُبِّ الخِصامِ ، وبات يرعاها الضَّغَنْ

. . .

لا تحفلوا بالمرجفينَ ، فإنَّ مطلَبَهُمْ حقيرُ

---

(١) في عام ١٩٢٨ عقد مؤتمر عربي عام في القدس عاصمة فلسطين .

حبُّ الظهورِ على ظهورِ الناسِ مَنشأهُ الغرورُ
ما لم يَكنْ فضلٌ يزينُكَ فالظهورُ هو الفجورُ
سيروا بعينِ اللهِ ، أنتمْ ذلكَ الأملُ الكبيرُ
سيروا فقد صفتْ الصدورُ ، تباركتْ تلكَ الصدورُ !

. . .

سيروا فسُنَّتُكمْ لخيرِ بلادِكمْ خيرُ السُنَنْ
شدّوا المودةَ والتآلفَ والتفاؤلَ في قَرَنْ
لا خوفَ إنْ قامَ البناءُ على الفضيلةِ وارتكنْ

. . .

حيِّ الشبابَ وقُلْ سلاماً ... إنكُمْ أملُ الغدِ
صحّتْ عزائمُكُمْ على ... دفعِ الأثيمِ المعتدي
واللهُ مدَّ لكمْ يداً ... تعلو على أقوى يدِ
وطني أزفَّ لكَ الشبابَ ... كأنَّهُ الزهرُ النّدي
لا بُدَّ من ثمرٍ لهُ ... يوماً وإنْ لم يُعقدِ

. . .

ريحانُهُ العلمُ الصحيحُ ، ... وروحُهُ الخلقُ الحسنْ
وطني ، وإن القلبَ يا ... وطني بحبّكَ مُرتَهنْ
لا يطمئنُّ فإن ظفرتَ بما يُريدُ لكَ اطمأنْ

في كلية النجاح : وفي العام الدراسي (٢٩ - ١٩٣٠) عُيّنَ إبراهيم معلماً للعربية في (كلية النجاح) بنابلس فنفثَ في طلابه روحاً قومية وحماسة وطنية ضد الاستعمار الغشوم ! وإبان عمله في هذا المعهد الوطني غادر المغرب العربي ، يوم كان يرزح تحت الحكم الاسباني ، ستة من فتية المغرب قصدوا (كليـة النجاح) فنظم إبراهيم نشيداً جميـــلًا مؤثراً أنشده اولئك الطلابُ بنغم شجيٍ ساحرٍ ذكّرَنا بـ (طارق) و (الحمراء) :

فتيةَ المغربِ هيَّـــا للجهاد نحنُ أولى الناسِ بالاندلسِ
نحن ابطالٌ فتاها (ابن زياد) ولها نُرخصُ غالي الانفسِ

قفْ على الشاطىء وانظرْ هل ترى لهبَ النارِ وآثار السفينْ (١)
يومَ لا (طارقُ) عاد القهقرى لا ، ولا آباؤنا أسْدُ العرينْ

يومَ لا عزمُ الجبالِ الراسياتْ مُشْبِهٌ عزمَ شبابِ المغربِ
لا ولا همةُ بحرِ الظلماتْ أشبهتْ همَّةَ جيشِ العربِ

يا فتى المغربِ سَلْها من بنى دارها (الحمراءَ) تسمعْ عجبا
قاعدها لذويهـــا وطنا تحسد الدنيـــا عليه العربا

نحنُ أهلوها وان هبّتْ صَبا من رُباها فعلينـــا أولا
جنةُ الفردوسِ هاتيك الرُبى كيف تبقى لسوانا نُزُلا ؟ !

وطني : وفي أحلك الساعات لم ينسَ ابراهيم (فلسطين) وطنـــه المغصوب ... بل ظلّ فؤاده متعلقاً به ، متتبعاً ما يجري فيه من حوادث الثورة

(١) اشارة الى السفن التي امر بحرقها « طارق بن زياد » في خطبته المشهورة .

على الانتداب وأعوانه ، مرسلًا في شعره الوطني صيحات عنيفة تعبّر عما يتجاوب في شعوره نحو قضية بلاده !

وفي (كلية النجاح) نظم ابراهيم نشيد (وطني) وفيه أفرغ حبّه لذاك الفردوس المفقود ، وأودع كل كلمة من كلماته روحه العالية وما يلتهب بين جانحتيه من وطنية صادقة ، وعقيدة راسخة كالطود :

وطني ، أنتَ لي والخصمُ راغمٌ وطني ، أنت كلُ المنى !
وطني ، إنني إن تسلم سالمٌ وبك العزُّ لي والهنا
يا شبابنا انهضوا آنَ أن ننهضا
ولنُعلّ الوطنْ فلنِعمَ الوطنْ
وانهضوا وارفعوا عالياً مجدكم خالداً ساميا
وطني ، مجده في الكونِ أوحدُ وطني ، صافح الكوكبا
وطني ، حسنُهُ ، في الكونِ مفردُ جنّة سهله والرُبى
يا شبابنا انهضوا آن أن ننهضا
ولنعلّ الوطنْ فلنِعمَ الوطنْ
وانهضوا وارفعوا عالياً مجدكم خالداً ساميا
وطني ، حيث لي محبٌ ينطقُ بلساني وما أشعرُ
وطني ، حيث لي فؤاد يخفقُ وبه رايتي تنشرُ
يا شبابنا انهضوا آنَ أنْ ننهضا
ولنعلّ الوطنْ فلنِعمَ الوطنْ
وانهضوا وارفعوا عالياً مجدكم خالداً ساميا

الثلاثاء الحمراء : في صيف عام ١٩٢٩ حاول اليهود في فلسطين الخروج على التقاليد الثابتة المتعلقة بزيارتهم الجدار الغربي من (البراق) ، فهاج العرب إذْ فطنوا لما يبيّته اليهود من وراء هذه المحاولة من اعتداء على الاماكن المقدسة في فلسطين .

ومن جراء تلك المحاولة الآثمة نشبت في كبريات المدن الفلسطينية كالقدس والخليل ويافا وصفد اضطرابات دامية بين العرب واليهود ، قتل فيها من هؤلاء المعتدين في صفد والخليل عدد كبير ، وما لبثت السلطات البريطانية ان قبضت على نفر من الشبان العرب ، ملأت الحماسة صدورهم ، بتهمة قتل اليهود ، فحوكموا وحكم عليهم الانكليز بالاعدام ، ومن الشهداء الابرار (فؤاد حجازي) (صفد) و (محمد جمجوم)و(عطا الزير)، (الخليل). فنظم ابراهيم[1]قصيدة حرة من قيود القافية الواحدة اسماها (الثلاثاء الحمراء) وقارن احداثها بالمظالم التي مرت بها الانسانية في عهود (محاكم التفتيش) في اوروبا ثم عهود الرقيق فيها ثم عهد (جمال السفاح) في سورية ، وبوّبها ثلاثة ابواب يتعلق كل باب بالآخر تعلقاً يجعل القصيدة وحدة تامة . وهي لعمر الحق درّة من دُرر الشعر العربي المعاصر !

« وفي نهار الثلاثاء السابع عشر من حزيران عام ١٩٢٩ كان التكبير على المآذن ، وقرع النواقيس في الكنائس ، يتجاوب صداهما في ارجاء فلسطين والعالم العربي ، إذ في هذا النهار ، نفذ حكم الاعدام بالشهداء الثلاثة في ثلاث ساعات متوالية ، فكان أولهم (فؤاد حجازي) وثانيهم (محمد جمجوم) وثالثهم (عطا الزير) .وكان من المقرر أن يكون الشهيد(عطا الزير) ثانيهم ، لكنّ (جمجوماً) حطّمَ قيده وزاحم رفيقه على الدور ، حتى فاز ببغيته ! »

وهنا يأخذ ابراهيم ريشة الشاعر الفنّان ليصوّر ذلك اليوم القاني المخضّب بالدماء أروع تصوير،وليسجّل في سِفر الشعر الوطني الخالدهذه المورّارة بعبق القومية المتوثبة المضمّخة بعطرها :

مقدمة

لمّا تعرّضَ نجمُكَ المنحوسُ   وترنّحتْ بعُرى الحبالِ رؤوسُ
ناح الأذانُ وأعولَ الناقوسُ   فالليلُ أكدرُ ، والنهار عبوسُ

---

١ – (اخي ابراهيم) ص ٣٤ .

طفقتْ تثور عواصفُ وعواطفُ
والموتُ حيناً طائفُ أوخاطفُ

والمِغْولُ الأبديُّ يُمعِنُ في الثرى ليردَّهم في قلبها المتحجِّرِ
يومٌ أطلَّ على العصور الخاليهْ ودعا : « أمرَّ على الورى أمثاليه؟ »
فأجابه يومٌ : « أجلْ وأنا راويهْ لمحاكمِ التفتيشِ ، تلكِ الباغيهْ

ولقد شهدتُ عجائبا وغرائبا
لكنَّ فيكَ مصائبا ونوائبا

لم ألقَ أشباهاً لها في جوْرِها فاسألْ سوايَ وكمْ بها من مُنكَرِ! »

. . .

واذا بيومٍ راسفٍ بقيودِهِ فأجابَ ، والتاريخُ بعضُ شهودِه :
« انظرْ الى بيضِ الرقيقِ وسودِهِ من شاءَ كانوا مُلكَهُ بنقودِه

بَشَرٌ يُباعُ ويشترى فتحرّرا
ومشى الزمان القهقرى فيما أرى ...

فسمعتُ مَنْ منعَ الرقيقَ وبيعَهُ نادى على الأحرار: «يا مَنْ يشتري!»

. . .

واذا بيومٍ حالكِ الجلبابِ مُترنّحٍ من نشوةِ الأوصابِ
فأجابَ : « كلاّ ، دون ما بكَ ما بي أنا في رُبى (عاليه) ضاع شبابي

وشهدتُ للسفّاحِ ما أبكى دما
ويلٌ له ما أظلما لكنما ...

لم ألقَ مِثْلَكَ طالماً في روعةٍ فاذهبْ لعلّكَ أنتَ يومُ المحشر! »

(اليومُ) تُنكره الليالي الغابرهْ   وتظلُّ ترمُقُهُ بعينٍ حائرهْ
عجباً لأحكامِ القضاءِ الجائرهْ   فأخفُّها أمثالُ ظلمٍ سائرهْ
وطنٌ يسيرُ الى الفناءْ
بلا رجاءْ
والداءُ ليسَ له دواءْ
إلا الإباءْ
ان الإباءَ مناعةٌ ، إنْ تشتملْ   نفسٌ عليه تَمُتْ ولمَّا تُقهر

. . .

الكلُّ يرجو أنْ يُبكِّرَ عفْوُهُ   ندعو له ألاَّ يُكدّرَ صفوه ... !
إن كان هذا عطفُهُ وحنُوُّهُ   عاشت جلالتُهُ وعاش سموُّه ... !
حَمَلَ البريدُ مُفصَّلا
ما أجملا
هلاَّ اكتفيتَ توسُّلا
وتسوُّلا
والموتُ في أخذِ الكلامِ وردِّهِ   فخذِ الحياةَ عن الطريق الأقصرِ

. . .

ضاقَ البريدُ وما تغيَّرَ حالُ   والذلُ بين سطورنا أنسالُ
خسرانُنا الأرواحُ والأموالُ   وكرامةٌ – يا حسرتا – اسمالُ
أوَ تُبصرونَ وتسألونْ
ماذا يكونْ ؟ !
إنّ الخداعَ له فنونْ
مثلَ الجنونْ !
هيهات ، فالنفس الذليلةُ لو غدَتْ   مخلوقةٌ من أعينٍ لم تبصرِ !
أنَّى لشاكٍ صوتُهُ أن يُسمَعا   أنَّى لباكٍ دمعُهُ أن ينفعا ؟ !
صخرٌ أحسّ رجاءَنا فتصدَّعا   وأتى الرجاءُ قلوبَهم فتقطّعا
لا تعجبوا ، فمنَ الصخورْ
نبعٌ يفورْ
ولهم قلوبٌ كالقبورْ
بلا شعورْ
لا تلتمسْ يوماً رجاءً عند مَنْ   جربتَهُ فوجدتهُ لم يَشْعُرِ !

الساعات الثلاث

ــ الساعة الأولى ــ

أنا ساعةُ النفسِ الأبيّهْ الفضلُ لي بالأسبقيهْ
أنا بكرُ ساعاتٍ ثلاثٍ كلُّهــا رمزُ الحميّهْ
بنت القضيةِ انّ لي أثراً جليلاً في القضيّهْ
أثرَ السيوفِ المشرفيةِ والرماحِ الزاغبيّهْ
أودعتُ في مُهجِ الشبيبةِ نفحةَ الروحِ الوفيّهْ
لا بُدّ من يومٍ لهم يسقي العدى كأسَ المنيّهْ
قسَماً بروح (فؤاد) تصعدُ من جوانحه زكيّهْ
تأتي السماءَ حفيةً فتحلُّ جنّتها العليّهْ
ما نالَ مرتبةَ الخلودِ بغير تضحيةٍ رضيّهْ
عاشتْ نفوسٌ في سبيلِ بلادِها ذهبتْ ضحيّهْ

الساعة الثانية ــ

أنا ساعةُ الرجلِ العتيدِ أنا ساعةُ البأسِ الشديدِ
أنا ساعةُ الموتِ المشرّفِ كلّ ذي فعلٍ مجيــدِ
بطلي يحطمُ قيدَهُ ــ رمزاً لتحطيمِ القيودِ (١)
زاحمتُ مَنْ قبلي لأسبقَها الى شرفِ الخلودِ
وقدحتُ في مُهجِ الشبــابِ ، شرارةَ العزمِ الوطيدِ
هيهاتَ يُخدَعُ بالوعودِ ، وأن يُخدّرَ بالعهودِ !

١ ــ نفذ حكم الاعدام بالشهداء الثلاثة في ثلاث ساعات متوالية فكان اولهم : « فؤاد حجازي » وثانيهم « محمــد جمجوم » وثالثهم « عطا الزير » وكان المقرر رسمياً ان يكون الشهيد « عطا » ثانيهم لكن« جمجوماً » حطم قيده وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته !

قَسَماً بروح (محمدٍ) : تلقى الردى حُلوَ الورودِ
قَسَماً بأمِّك عند موتِكَ وهي تهتف بالنشيدِ
وترى العزاءَ عن ابنها في صيته الحسنِ البعيدِ !
ما نالَ من خَدَمَ البلادَ أجلَّ من أجرِ الشهيدِ !

ـ الساعةُ الثالثة ـ

أنا ساعةُ الرجل الصبورِ أنا ساعةُ القلبِ الكبيرِ
رمزُ الثباتِ الى النهايةِ في الخطيرِ من الأمورِ
بطــلي أشدُّ على لقــاءِ الموتِ من صُمِّ الصخورِ
جذلان يرتقبُ الردى فاعجبْ لموتٍ في سرورِ !
يلقى الإلهَ (مُخضّبَ الكفّين) في يوم النشــورِ !
صبرُ الشبابِ على المصابِ وديعتي ملءُ الصدورِ
أنذرتُ أعداءَ البلادِ بشرِّ يومٍ مُستطيرِ
قَسَماً بروحك يا (عطاءُ) وجنّةِ الملكِ القديرِ
وصغارِكَ الأشبالِ تبكي الليثَ بالدمعِ الغزيرِ
ما أنقذ الوطنَ المفدّى غيرُ جبّارٍ جسورِ !

الخاتمة

ـ الأبطالُ الثلاثةُ ـ

أجسادُهمْ في تربةِ الأوطانِ أرواحهم في جنةِ الرضوانِ
وهناك لا شكوى من الطغيانِ وهناك فيضُ العفوِ والغفران

لا تَرْجُ عفواً من سواهْ هو الإلهْ

وهو الذي ملكتْ يداهْ كلَّ جاهْ

جَبَرُوتُهُ فوق الذين يغرُّهم جبرُوتُهمْ في برِّهمْ والأبحرِ !

« وكان يوم [1] حفلة (كلية النجاح) السنوية في نابلس ، ولم يكن قد مضى على تنفيذ حكم الإعدام بهؤلاءِ الشهداءِ اكثر من عشرة ايام ، فالنفوس لا تزال ثائرة ، والعواطف لا تزال مضطربة ، وفي تلك الحفلة ، القى (ابراهيم) قصيدة (الثلاثاء الحمراء) وذهل عن الجمهور وشعر كأنما خرج من لحمه ودمه فكان يلقي بروحه واعصابه ، فما انتهى ، حتى كان بكاءُ الناسِ يعلو نشيجه ، ثم تدفّقوا خارج القاعة في حالة هياج عظيم ، حتى لقد قال بعضهم : « لو ان ابراهيم القى قصيدته في بلد فيه يهود لوقَعَ ما لا تُحمد عقباه ! »

وفي هذه الملحمة القومية الخالدة قال الشاعر الكبير بشاره عبد الله الخوري (الاخطل الصغير) :

« هذه العواطف الفياضة ، والصور الشعرية البارعة ، يلبسها ابراهيم ألوانها الممتازة ، للحزن لونه ، وللعنف لونه ، وهكذا الى ما لا نهاية له من الألوان التي ترسمها النفس الشاعرة المتألمة !

وانا لنقرأ هذه القطع الذائبة ، فنتخيل الشاعر وقد استشهد ثلاث مرات ، مع كل شهيد مرة ، أفلا ترى هذه الاجزاء المتقطعة من نفسه ، والخيالات السوداء التي تطوف في كل بيت من قصيدته ، كما تطوف الاحلام السكرى برأس الذين رنت على مسامعهم الاحكام بقتلهم ! »

في الذكرى الرابعة : وفي الذكرى الرابعة لشهداء (الثلاثاء الحمراء) نظم

---

١ – (أخي ابراهيم) ص ٣٥ .

ابراهيم قصيدة من نوع الموشح وقـــد فاضت مقاطعها بالأسى المرير ، والعاطفة المشبوبة :



(الاخطل الصغير)

عَبَسَ الخطبُ فابتسمْ وطغى الهولُ فاقتحمْ
رابطَ الجأشِ والنُهى ثابتَ القلبِ والقـدمْ

لم يُبالِ الأذى ولم يُثنه طارئُ الألمْ
نفسُهُ طوعُ همةٍ وَجمتْ دونها الهممْ
تلتقي في مزاجها بالأعاصير والحممْ
تجمع الهائجَ الخضمّ الى الراسخِ الأشمّ
وهي من عنصر الفداءِ ومن جوهرِ الكرمْ
ومن الحقّ جذوةٌ افحها حرّرَ الأممْ
سار في منهجِ العلى يطرقُ الخلدَ منزلا

فهو رهنٌ بما عزمْ

ربما غاله الردى وهو بالسجنِ مرتهنْ
لم يُشيّعْ بدمعةٍ من حبيبٍ ولا سَكَنْ
ربما أدرجَ الترابَ سليباً من الكفنْ
لستَ تدري بطاحُها غيّبتهُ أم القُنَنْ
لا تقلْ أين جسمُهُ واسمُهُ في فم الزمنْ
إنه كوكبُ الهدى لاحَ في غيهبِ المحنْ
أرسلَ النورَ في العيونِ، فما تعرفُ الوَسَنْ
ورمى النارَ في القلوبِ، فما تعرفُ الضغَنْ

• • •

أيُّ وجهٍ تهلّلا يردُ الموتَ مقبلا
صَعَّدَ الروحَ مرسلا لحنَهُ يُنشِدُ الملا
أنا للهِ والوطنْ

يصفع شاعراً يهودياً : وفي الثورة العاتية التي شبَّتْ نارها في فلسطين عام ١٩٢٩ وذبَّ فيها العربُ عن حياضهم ، وصدّوا عدوان اليهود واطماعهم عن مقدساتهم ، هجا الشاعر اليهودي (نحمان بيالك) العربَ بقصيدة بذيئة الألفاظ نشرتها جريدة (دوار هايوم) اليهودية بعنوان « انشودة النصر ! » وفيها شبَّهَ الشاعرُ اليهوديُّ العربَ بالفئران الخارجة من اوكارهـا ، وسخر من ثورتهم وعيّرهم بأنهم (ابناء هاجر ! جارية ساره !) !

وما ان ترجمت جريدة (فلسطين) اليافية هذه القصيدة اليهودية البذيئة وقرأها شاعرنا ابراهيم حتى هاج شيطان شعره وأملى عليـه ردّاً تميّـز بسعة اطلاعه على اساطير التوراة وتاريخ بني اسرائيل الملفـّق والمحشوّ بهتاناً وضلالاً ومباذلَ ، ومن ذلك الردّ الرائع قول ابراهيم :

(هاجرٌ) أمُنا ولودٌ رؤومُ [١] لا حسودٌ ولا عجوزٌ عقيمُ [٢]

(هاجرٌ) أمُّنـا ومنها (أبو العُربِ) ذاك (النبيُّ) الكريمُ

ومنهـا :

(يوسفٌ) باعه أبو كـُمْ (يهوذا) [٣] إن حبّ الدينار فيكم قديمُ

ومنهـا :

و (شكسبير) خالدُ القولِ فيكم أمرُ (شيلوخَ) [٤] في الورى معلومُ

---

١ ـ العطوف على بنيها .

٢ ـ جاء في اخبار التوراة ان « ابراهيم » تزوج « ساره » فلم يرزقا في اول عهدهما اولاداً حتى شاخا ، وذات يوم اهدت « ساره » « ابراهيم » جارية اسمها « هــاجر » انجبت له « اسماعيل » جد العرب ، كما جاء في الاخبار ، وبعد فترة انجبت « ساره » ولدها « اسحق » جد اليهود !

٣ ـ راجع سفر «التكوين» الاصحاح « ٣٧ »

٤ ـ تدور مسرحية « تاجر البندقية» لـ « شكسبير » حول مراب يهودي مقيم في مدينة

غير أنّ الذين منهم (شكسبير)　　تناسوا مـا قال ذاك العظيمُ !

دم الشهيد : واذا كان الشعراء هم الذين يوحون الى المجموع بسرّ عواطفهم الحرّى ، فينفثون في روحه ما تُكنّه نفوسهم من مشاعر، وهم الذين يستوحونه احساساته ويجعلون منه شعراً ، فابراهيم قذف شظية من نيران وطنيته المتأججة ، واستمدّ سعيرها من بؤس وطنه المعذب وأمته المنكودة الطالع :

يا تعسَ [١] مَنْ سيمَ خَسْفَا　　وراح يظهر ضعفـا

= «البندقية» بايطاليا اسمه «شيلوخ» جاءه يوماً رجل اسمه «باسانو» ليستدين منه ثلاثة آلاف دوقة لمدة ثلاثة اشهر ، فكفل «باسانو» صديق له اسمه «انطونيو» وكان تاجراً معروفاً في« البندقية » ولم يكن يملك في ذلك الحين نقداً ، إذ اشتري بكافة أمواله بضائع ارسلها على مراكبـه الى بلاد مختلفة ، واشترط «شيلوخ» لدفع المبلغ ان يكون الدين لمدة ثلاثة شهور بصك يوقع عليه « باسانو » و «انطونيو» واذا تأخرا عن اداء المبلغ في حينه فيحق لـ « شيلوخ» ان يقتطـع ليبرة لحم من موضع يختاره من جسم «انطونيو» !

وقبل هذا بالشرط فضحك «شيلوخ» في سره وقال :« إن انطونيو مسيحي يكره اليهود قومي وأنا ابغضه وأود ان اشبـع حقدي عليه من دمه ! »

واتفق ان عجز «باسانو» عن اداء المبلغ وان تغرق سفن «انطونيو» وعجز المدين والكفيل عن الدفع فوقف الجميع امام القاضي وهناك أصر «شيلوخ » على الا يقبل مالاً أو أي حل آخر الا باقتطاع ليبرة من لحم « انطونيو » ولما أعيت القاضي الحلول والمقترحات قال لـ«شيلوخ » : « اختر المكان الذي ستقطع اللحم منه ! » فاختار « شيلوخ » الصدر لقربه من قلب « انطونيو » وهنا اعترضت « بورشيا » خطيبة « باسانو » وقالت لـ « شيلوخ » : « ان الشرط بينك وبين « انطونيو » ان تقتطع ليبرة من لحمه ولكن لا يجوز لك ان تترك نقطة من دمه تسيل ... !)

ويعلن « شيلوخ » عجزه عن ذلك ويريد ان يسترد رأس ماله فقط، ثم يتنازل عن راس ماله أيضاً فيرفض القاضي الا ان تصادر اموال هذا المرابي الفـاجر ، فيعطي « انطونيو » نصفهـا ويرد نصفها«الاخر الى خزانة الدولة !

١ – نشرت في العـدد ٦٨٢ من جريدة « مرآة الشرق » المقدسية المؤرخ في ٨ آذار ١٩٣٠ لصاحبها المرحوم بولس شحاده .

ومَنْ اذا صفعته الـ ... حكّامُ قبّلَ كفّا
ومَنْ اذا شتمته ... فليس ينطق حرفا
آهِ فلسطين كم ذا ... ترين ظلماً وعسفا
هذي جيوشُ الرزايا ... عليك ترحف زحفا
مدّ الدخيلُ الى قلـ ... بكِ المحطّمِ ظالفا
خالَ العويلَ نشيداً ... وأنّةَ اليتم عزْفا
وشقوة الشعب سعداً ... وحرقة البؤس عرفا
أبناؤكِ الصِّيدُ ها همْ ... ما بين سجنٍ ومنفى

ومن يريدون عدلاً ... منهم يلاقون حتفا
باتوا ضحايا انتدابٍ ... وظلمه ليس يخفى
ما ذنبُهم غير أن الـ ... جميع يطلب (حلفا) !

يا وفد : وفي الرابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٠ فرغت اللجنة التنفيذية العربية من تأليف الوفد العربي الفلسطيني الرابع للسفر الى لندن لملاحقة القضية الفلسطينية والعمل لها في الاوساط البريطانية وتفنيد مزاعم الصهيونية الباغية ، وكان قوام ذلك الوفد : المرحوم موسى كاظم الحسيني ، المرحوم راغب النشاشيبي ، المرحوم الفرد روك ، الحاج امين الحسيني ، السيد عوني عبد الهادي ، السيد جمال الحسيني .

وفي الحادي والعشرين من آذار ١٩٣٠ يمّم الوفد لندنَ مقرّرة مصير الشعوب ، فحضّ ابراهيم ذلك الوفد بقوله :

يا (وفدُ) سرْ بأمانٍ ... يا (وفدُ) لا ترجُ حِلْفا
فكلُ راجٍ ذليلٌ ... ولو جنى القولَ ألفى

قـُلْ : ذلك العهد ولـّى وانتـا اليوم اكفا
كم من فتى طلب الـ عزّ في الحياة فوفـّى

لما رأى العيشَ ذُلاً أبى وعـانقَ سيفا
قضى شهيداً عزيزاً وفي الفراديس أغفى

فيها الملائك تزجى اليــه صفاً فصفـّا
تـحفـّـه وهو بالنـ بل والكرامةِ حفـّا
دُم الشهيدِ الى الـ استقلال أشرفُ زُلفى !

الفدائي : وامعاناً في اذلال العرب وقهرهم والكيد لهم عيـّنَ الانكليز في فلسطين (بنتويش) اليهودي القحّ (نائباً عاماً) وعهدوا اليه بمهمة (طبخ) القوانين التعسفية و (سلق) الأنظمة الجائرة التي من شأنها اضعاف الكيان العربي وتهويد فلسطين ومولد (اسرائيل !) على عجل ... فثقلت وطأته على العرب حتى كمـُنَ له شاب (١) عربي أبيّ النفس في مدخل دار الحكومة بالقدس واطلق عليه النار فجرحه في فخذه وهذه أولُ محاولة اغتيال سياسي يقوم بهـا شاب فلسطيني بمفرده لأغراض سياسية ، فنظم ابراهيم في هـذا الشاب الجريء قصيدة سمّاها « الفدائي » وقد علـّقَ عليها الاستاذ بشاره عبد الله الخوري (الاخطل الصغير) صاحب جريدة (البرق) البيروتية في العدد الصادر في التاسع من حزيران عـام ١٩٣٠ بقوله :

« أتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي تجيش بها النفوس الظمأى الى حرياتها؟ أتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة دماً وناراً ؟ تعرّف اليها اذن :

لا تسلْ عن سلامتهْ روحُهُ فوق راحتهْ
بدّلتــهُ همومُــهُ كَفَنَاً من وسادتهْ

يرقبُ الساعةَ التي بعدها هولُ ساعتهْ
شاغلٌ فكرَ من يراه باطراق هامتهْ

بين جنبيه خافق يتلظّى بغايتهْ
من رأى فحمةَ الدُجى أُضرمت من شرارتهْ

حمّلَتْهُ جهنمٌ طَرَفاً من رسالتهْ
هو بالبابِ واقفٌ والردى منه خائف

فاهدأي يا عواصفُ خجَلاً من جراءتِهْ

• • •

صامتٌ لو تكلّما لَفَظَ النار والدما
قُلْ لمن عابَ صَمْتَهُ خُلِقَ الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تَزَلْ يدُهُ تسبقُ الفما
لا تلوموه، قد رأى منهجَ الحقِ مُظلما
وبلاداً أحبَّها ركنُها قد تهدّما
وخصوصاً ببغيهمْ ضَجَّت الأرضُ والسما
مرَّ حينٌ، فكاد يقتلُهُ اليأسُ، إنما ...

• • •

هو بالبابِ واقفُ والردى منه خائفُ
فاهدأي يا عواصفُ خجَلا من جراءتِهْ

الحبشيّ الذبيح : وفي عام ١٩٣٠ ارتبط ابراهيم بالجامعة الاميركية في

١ — هو السيد عبد الغني محمد ابو طبيخ من حمولة « السباعنة » في قرية « قباطية » التابعة لقضاء « جنين » وقد حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً .

بيروت ، وبعد عام من عمله هذا نظم قصيدة « الحبشي الذبيح » وقد نشرتها جريدة (البرق) البيروتية وعلّق عليها صاحبها الاستاذ بشاره عبد الله الخوري (الاخطل الصغير) بكلمة قال فيها :

« هذه الديكة الحبشية أو الديكة الهندية ، اذا شئت ، التي يذبحونها على رنين الأجراس وافراح المعيدين لتكون (عروس المائدة) تعمل فيها المدى تقطيعاً وتشذيباً لتمتلىء بها البطون مروية بكؤوس الخمر من بيضاء وحمراء !

كذلك هي الامم المغلوبة على امرها كانت وما برحت (عروس الموائد) شأن (الحبشي الذبيح !) أما ريشه فتحشى به الوسائد ، واما لحمه فتحشى به البطون ! »

وفي هذه القصيدة الحيّة في صورها ، اللمّاعة في أصباغها ، البرّاقة في فتونها ، تلمح (الديك الحبشي) ينحر على الموائد نحر الأمم المغلوبة على مذابح الشعوب القوية الغالبة !

« ... ولقد [١] أوحى اليه بهذا الموضوع العنيف ، وقوفه يوماً برجل على جانب الطريق في بيروت يذبح ديوكاً حبشية يُعدُّها لرأس السنة ، واذا بالنفس الشاعرة يروعها أن لا يقوم السرور الا على حساب الألم ! واذا بها تفيض بأقوى الشعر التصويري الحيّ ! » .

ودونك تلك (اللوحة) الشعرية وقد رسمتها (ريشة) ابراهيم نابضةً بدفقات الحياة :

بَرَقَتْ [٢] له مسنونةٌ تتلهبُ　　　أمضى من القدر المتاحِ وأغلبُ

---

١ – « اخي ابراهيم » ص ٦٢ .

٢ – يعود الضمير المستتر في (برقت) على السكين .

حَزّتْ فلا خدُّ الحديدِ مُخضّبٌ ... بدمٍ ولا نحرُ الذبيحِ مُخضّبُ
وجرى يصيحُ مصفّقاً حيناً فلا ... بصرٌ يزوغُ ولا خطىً تتنكّبُ
حتى غَلَت بي ريبةٌ فسألتُهمْ ... خانَ السلاحُ أم المنيةُ تكذبُ ؟ !
قالوا : حلاوةُ روحه رَقَصَتْ بهِ ! ... فأجبتُهمْ : ما كلُّ رقصٍ يُطربُ
هيهاتَ ، دونكه قضى ، فاذا به ... صَعقٌ يشرّقُ تارةً ويغربُ
واذا به يزورُّ مختلفَ الخطى ... وزكيّةٌ موتورةٌ تتصبّبُ
يعدو فيجذبه العياءُ فيرتمي ... ويكادُ يظفرُ بالحياةِ فتهربُ
متدفقٌ بدمائه متقلّبٌ ... متعلّقٌ بذمائه (١) متوثبُ
أعذابُه يُدعى حلاوةَ روحه ؟ ... كم منطقٍ فيه الحقيقةُ تُقلبُ
إن الحلاوةَ في فمٍ متلمظٍ ... شَرَهاً ليَشربُ ما الضحيةُ تسكبُ
هي فرحةُ العيدِ التي قامتْ على ... ألمِ الحياةِ ، وكلّ عيدٍ طيّبُ !

مصر وشقيقاتها : وفي ربيع عام ١٩٣١ زارت برّ الشام فرقة رياضية مصرية واقيمت على شرفها في بيروت حفلة تكريمية وألقى ابراهيم ، وكان من مدرسي الأدب العربي في الجامعة الاميركية ، قصيدة عامرة الأبيات نشرتها جريدة « الشورى » (٢) القاهرية لصاحبها الاستاذ محمد علي الطاهر ، وكان دخول هذه الجريدة الى سورية ولبنان محظوراً ، واطّلعَ على هذه الجريدة « الطوقانية » أمير البيان الامير شكيب ارسلان (نزيل لوزان عهد ذاك) فأرسل الى « الشورى » مقالاً بليغاً في تقريظها تحدّث فيه عن اهتزاز نفسه طرباً لتلاوة تلك القصيدة !

وليقفَ ابراهيم على القصيدة منشورةَ في « الشورى » وعلى رأي الامير ارسلان في منظومته الرائعة ، بادر الاستاذ أكرم زعيتر الى تزويد صديقه ابراهيم (نزيل بيروت) بعدد « الشورى » وفيه قصيدة ابراهيم وتعليق الأمير الأرسلاني

١ – بقية الروح .
٢ – العدد ٣١٩ تاريخ ٨ نيسان ١٩٣١ .

عليها ، فكتب اليه شاعرنا ، رحمه الله ، الرسالة التالية :

١٤ أيار ١٩٣١ بيروت ـ الجامعة الاميركية

أخي الأكرم :

سلام وتحية واشواق كثيرة ، وصلني عدد « الشورى » وعليه اربع كلمات ـ سامحك الله يا اكرم ، كنت أود لو اعرف شيئاً عن احوالك الآن [٢] ـ اشكرك جزيل الشكر واشكر « الشورى » وصاحبها اخي الاستاذ محمد علي الطاهر واشكر الامير العربي المجاهد على حسن ظنّه بهذا العاجز المتواضع !

ما هذه بالمنّة الأولى التي لك عليّ يا أكرم ، فقد كانت جريدة (مرآة الشرق) أولى الجرائد التي علّقت على ما أنظمه ايام كان قلمك الناريُّ يشن الغارة شعواءَ في ميدانها ، ولا أزال محتفظاً بما كنت تتكرم به على شعري من التعليق وأحرص عليه ، وما أفدحه واجباً من الشكر عليّ أقوم به نحوك وهيهاتَ أن أوفّيك حقك !

أما محمد علي الطاهر صاحب (الشورى) فلا ينفكّ يحلّقُ بي في أوجٍ هو ربُّهُ ، وأُفقٍ هو نسره ، فاذا صرت بحيثُ يضعني من النبوع والأدب فعلى جناحه قد ارتفعت ، والى ظلّه أويت !

وأما الاميرُ فقد حظر عليّ أن أقابله بشكر أو ثناء ، صدق والله الأمير وأصاب ... كأني به قد رأى أن لن أُوفيه حقّه من الشكر والثناء فأراد أن يكفيني مؤونة ذلك ، بل ماذا يغني عنه شكري وثنائي وهذه الأمة العربية

---

٢ ـ كان الاستاذ اكرم زعيتر محكوماً عليه ، حينذاك ، بالاقامة الجبرية في نابلس من قبل السلطات البريطانية .

والأقطار الاسلامية بأسرها مغمورة بفضله منذ عشرات السنين فما استطاعت أن تجزيه على ذلك الفضل !

هنا ، وهنا فقط ، يا أكرمُ يتعذر تطبيق قول القائل : « الجزاء من جنس العمل ! » فوازنْ بين أعمال الامير وقُلْ لي : كيف يجب أن يكون الجزاءُ ! ؟

سلامي الى أخويك الكريمين السيد عادل والسيد حسن والى الاصدقاء أخي » .

(ابراهيم طوقان)

ودونكَ قصيدة ابراهيم في تحية الفرقة الرياضية العربية :

تحية [1] لكِ يا مصرَ الفراعين ... ذوي المآثرِ من حيٍّ ومدفونِ
ولم تزلْ دوحةُ الآدابِ وارفةً ... على جوارِكِ خضراءَ الأفانينِ
اليكِ يا مصرُ إيماني ومُلتفتي ... ونورُ نهضتكِ الغراءِ يهديني
ولي أواصرُ قُربى [2] فيكِ ما برحت ... لما مضى ذات توثيقٍ وتمكينِ
شقّوا (القناة) عساها عنك تبعدني ... أنّى ؟ ومن لغتي جسرٌ سيدنيني !
أحبُ مصرَ ولكنْ مصرُ راغبةٌ ... عني فتعرضُ من حينٍ الى حينِ !
وإنْ بكيتُ ، لا بكيتُ همّاً ، فقد علمتْ ... وأيقنَتْ أنَّ ذاكَ الهمَّ يبكيني
وما عتبتُ على هجرٍ تدلُّ بهِ ... انَّ الدلالَ يُمنّيني ويغريني !

---

١ — اغفل السيد احمد طوقان ، شقيق ابراهيم ، اثبات هذه القصيدة في (ديوان ابراهيم) الذي صدر في عام ١٩٥٥ ، بسبب مطلعها لما قد يستروح من (فرعونية) في ابياتها ، ولعمر الحق انه اخطأ فيما ذهب اليه اذ القصيدة تنضح بالروح القومية .

٢ — يشير الى ان احد اجداده كان والياً على مصر ، ولا يزال بعض احفاده في وادي النيل على اتصال بآل طوقان في نابلس .

لكنْ جزعتُ على ودٍّ أخاف اذا فقدتُه لم أجدْ خِـلًّا يواسيني
في أصدقائي أعزّى إن همو هلكوا وفي الصداقات مـا لي من يعزيني
قالوا : شفاؤكَ في مصرٍ وقد يئسوا مني وأعيى سقامي مَنْ يداويني
خلّفتها بلدةً[1] يعقوبُ خلّفها شوقاً ليوسفَ قبلي فهو يحكيني
تُقلّني[2] من بنات النارِ زافرةٌ تكتنّني وهجير (التيهِ) يصليني
تمضي على سنن الفولاذِ جامحةً وجذوة الشوق تزجيها وتزجيني
حتى سَمَتْ ليَ جنّاتُ النخيلِ على ضِفافِ مطّرد النعماءِ ميمونِ
هبطتُ مصراً وظنّي انها رَقدتْ في ظلِّ أجنحةٍ من ليلها جونِ
كأنّها وكأنّ الليلَ منصدعاً بنورها سرُّ صدرٍ غير مكنونِ
و (الازبكية) في الامساءِ راقصةٌ لها غلائلُ من شتّى الرياحينِ
والنور ذو لحظاتٍ في خمائلها كأنها لحظاتُ النُهّدِ العينِ
مالي وللسقمِ أخشاهُ واسأل عن طبيبه و (عمـاد الدين[3]) يشفيني !
لو أنشبَ الموتُ بي أظفارَهُ لكفى بـ (أم كلثوم) أن تشدو فتُحييني
هذا ومصر بساتين منمّقةٌ (شبابُها) بعضُ أزهار البساتينِ
خاضوا ميادينَ من جدّ ومن لعبٍ فأحرزوا السبقَ في كلِ الميادين !

ومن دواعي الاعتزاز والغبطة ان احتفظ بين أوراقي المطويّة بتعليق الأمير ارسلان المنشور في (الشورى)[4] بعنوان (الشعر العربي استأنف ديباجته الأولى) ودونك ذلك التعليق البديع :

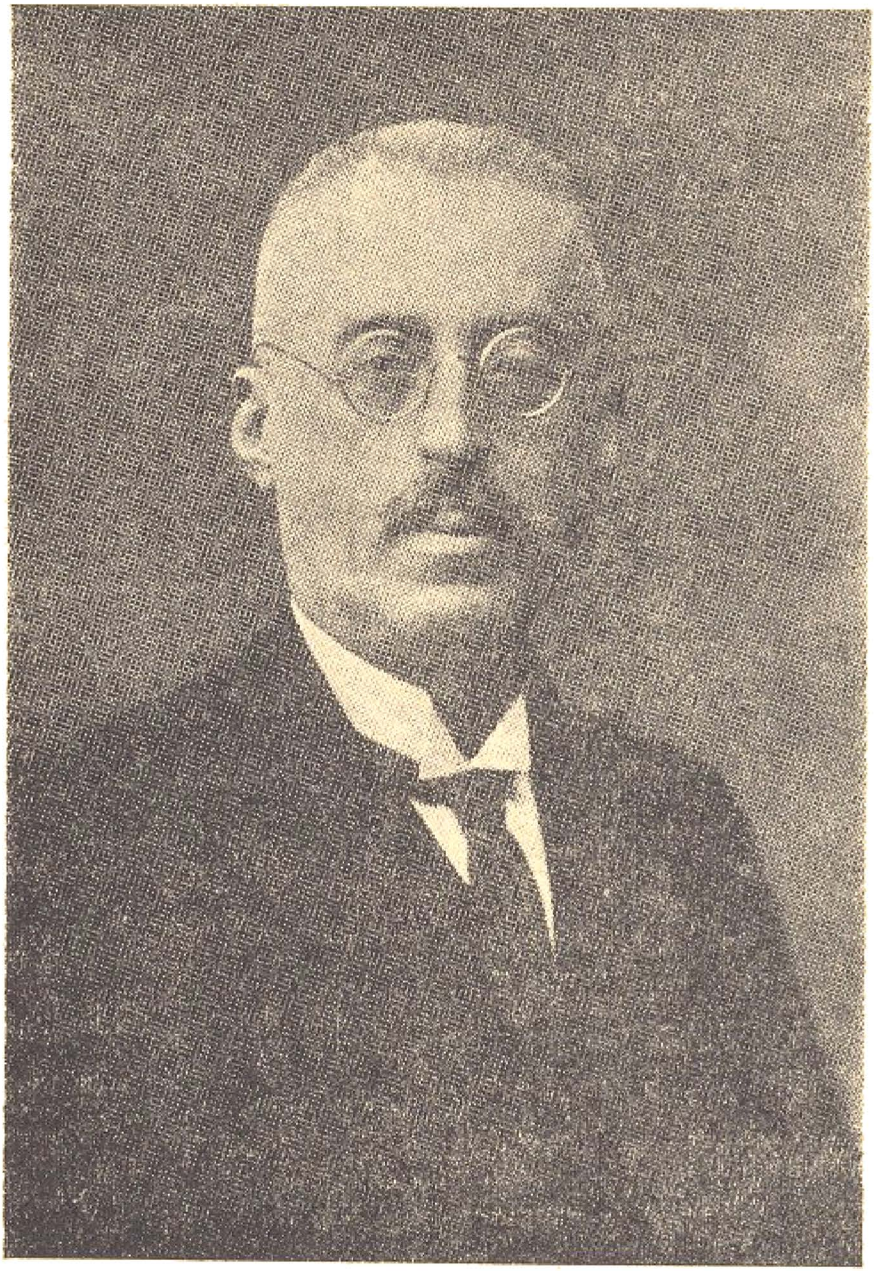
« كان الناسُ يظنون ان الشعر العربي في صدر الاسلام وما بعده الى زمان

---

١ – الضمير يعود الى نابلس (شكيم في التوراة) بلد الشاعر .
٢ – سكة الحديد .
٣ – شارع المسارح التمثيلية والغنائية في القاهرة .
٤ – العدد (١٣) ايار ١٩٣١ .

العباسيين أمد لا يدرك ، وان الأواخر عيال على الأوائل يقلدونهم ولا يدركون منهم نصيفاً ولا مداً !

ولكن نهضة الأدب العربي في هذا العصر ونبوغ (شوقي) و (حافظ)



المرحوم الأمير شكيب ارسلان

و (مطران) ومن اليهم من هذه الطبقة العالية ، قد أثبتوا ان المحدثين يمكنهم ان يباروا الأولين ويلحقوا بشأوهم واننا رجال كما هم رجال !

وما لذّني بهذه الايام شيء مثل أبيات لابراهيم طوقان قرأتها في (الشورى) فخلتُ نفسي اقرأ شعر (أبي نواس) أو (بشّار) أو (البحتري) !

وكررت قراءتها مراراً لعل النظرة الأولى أدهشتني ، فإذا بي كلما أعــدتُ النظر عليها أعربتْ عن ذات نفسها معنىً ومبنىً ، وازداد وجهها حسناً !

تحيرتُ أيّ شيء أعذب فيها ! أسهولتها مع المتعة ? أم رقّتها مع المتانة ? أم جزالتها مع النغمة ? أم سداد منطقها مــع « العاطفة » — على حدّ قول مقلّدة الأفرنج — أم مديحها مع الغمزة ? أم مراميها السياسية البعيدة المدى في معرض النزهة ?

أم قوله :

تحية لكِ يا مصر الفراعين   ذوي المــآثر من حيّ ومدفونِ

بهذه الجلالة التي تليقُ بمصر أم المدنية ومآثرهــا الفخمة المحيرة للعقول ، أم قوله :

شقّوا (القناة) عساها عنكُ تبعدني   أنىّ ? ومن لغتي جسر سيدنيني !

وهذا البيت الذي يذوب رقةً ، ويتوقد حميةً ، ويلعن أبا بسمارك سياسةً ، ويطوي خلاصــة القرون تاريخاً ، ويـكاد يكون في سعة معنـاه مجلّداً ، أم قوله :

أحبُ مصراً ولكن مصر راغبة   عني فتعرض من حينٍ إلى حين
وإن بكتْ ،لا بكتْ همّاً ،فقد علمتْ   وأيقنتْ ان ذاك الهمّ يبكيني

نعم يبكيك يا ولدي، ويجب ان يبكيك، ولكن يجب في السياسة ان نذكر قول الطغرائي :

وإنما رجلُ الدنيــا وواحدُها   من لا يُعوّلُ في الدنيا على رجلِ !

فمصر إذا اعرضت عنك فإنما تعرض عن نفسها ، وإنما تتبدل الضعف من القوة ،

والوحشة من الأنس الأنيس ، فأمهلها تعالج نفسها من الامراض الاجتماعية التي بها، وتقيء غشّ الفلسفة الكاذبة الذي دخل عليها ، وهي بعد ذلك تأتي من نفسها اليك ، وتضع يدها في يديك .. ! أم قوله في وصف سكة الحديد :

ُتقلّني من بنات النار زافرة ... تكتنُّني وهجير (التيهِ) ُيصليني !
تمضي على سنن الفولاذ جامحة ... وجذوة الشوق تزجيها وتزجيني !

فما أجمل هذا النظم وأجراه في السمع ، وأسلسه في الطبع ، وما أحلى « جملة الفولاذ » وقد ذكّرني هذان البيتان قصيدة نظمتها يوم بوشر العمل بسكة الحجاز منذ ثلاث وثلاثين سنة مطلعها :

ألا يا بني الاسلام هل من مساعدٍ ... لفعلٍ سماويّ المثوبة ماجد ؟!
أطلّ على شأو التقى بفريقه ... وسنّمه في البرّ أرقى المصاعد !

ومنها في وصف القطر الحديدية فيما أتذكر لأن النسخة غارقة في لجج ُخضرٍ من الاوراق :

إذا ما غدتْ تطوي الفلاة ظننتها ... نعائم يستأكلْنَ جمر المواقدِ

ومنها فيما أتذكر : « تبطنت الاحشاءَ من جسم عاندٍ » إشارة إلى الانفاق تحت الارض ومنها : « وتنسابُ مع الوادي انسياب الاساودِ » وغير ذلك مما أذكره لفائدة تاريخية،وإن كان ذكره في الواقع مع أبيات ابراهيم طوقان فضيحة لي . أم قوله :

هبطتُ مصراً وظنّي انها رقدتْ ... في ظلّ أجنحةٍ من ليلها جونِ
كأنها وكأن الليلَ منصدعاً ... بنورها سر صدر غير مكنون

هذا هو الشعر العربي على ديباجته الاولى في حسن السبك وبداعة التخيُّل

وجزالة اللفظ ، ولو قرأ هـذا صديقي (البارودي) ، رحمه الله ، لتمنّى أن يكون له ، ولو اطّلعَ عليه أخي (شوقي) لقال : « أترى شوقياً آخر في هذا العصر ? ! »

أم قوله عن ناشئة مصر :

خاضوا ميادين في جدّ وفي لعب فأحرزوا السبقَ في كل الميادين!

هذا البيت الذي سيذهب مثلاً ، وأيم الله لم أملك نفسي ، مع وفرة أشغالي وألم عينيّ ، من ان اقابلَ هذه العروس الشعرية بطأطأة الرأس ، واني لاحظر على ابراهيم بك طوقان ان يقابلني بشكر او ثناء فإني ما مدحته حتى يمدحني ، وما أردت إلاّ ان أفشّ قلبي .. ! »

لوزان ٢٠ ابريل ١٩٣١

« شكيب ارسلان »

مقدمات ونتائج : لا أحسب ان في العالم قاطبة قضية سياسية تعدل قضية فلسطين التي تغنّى ببطولات اهلها الشعراء والكتّاب وصوّروا كفاحهم المتواصل ، في سبيل نصفة بلادهم ، تصويراً رائعاً !

ومنذ اعلن وعد بلفور تتالتْ الثورات العاصفة على الاراضي المقدسة التي اصطبغ ثراها بنجيع المجاهدين الأبرار ، الذين كافحوا الاستعمار البريطاني وكادوا يجهزون على الوطن القومي لولا مؤازرة الغرب للصهيونية الباغية وحشده كافة الامكانات والطاقات لخلق (اسرائيل !) لتظلّ شجى في حلقوم العالم العربي !

« وقضية [1] فلسطين تعدّ قضية قومية عامة ، ولذا نرى الادب العربي في كل قطر يعطف عليها ويهتم بمصيرها ، ولو جمعت الأقوال التي قيلت فيها منذ بدء

---

١ — « الاتجاهات الادبية » ١ : ١٤٧ .

الانتداب البريطاني الى هذا العهد لملأت المجلدات ! »

« أما في فلسطين [1] نفسها فهنالك نفر من الشعراء وقفوا معظم شعرهم على هذه الناحية القومية السياسية ، منهم ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وعبد الكريم الكرمي وبرهان الدين العبوشي وعبد المنعم الرفاعي وفدوى طوقان أخت ابراهيم ، على ان ابراهيم كان أوسعهم قولاً وأنفذهم بصراً ، ومع انه توفي قبل وقوع الكارثة بسبع سنوات كاملة فانه كان يجزم في أشعاره وفي رسائله الي ، بالنتائج المنتظرة من تخاذل العرب وتنازع رؤسائهم على سفاسف الأمور ، وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح ..! أما نقمته البالغة فكانت على الزعماء المنافقين ! »

« ولعلّ [2] شعر ابراهيم طوقان أصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية وهي في طور الانتداب ! »

« بدأ [3] الانكليز منذ بدء انتدابهم على فلسطين يُرسون قواعد الوطن القومي اليهودي فارسلوا الى فلسطين مندوباً سامياً يهودياً ، ثم جعلوا يسنّون القوانين حتى يفسحوا المجال أمام اليهود بالهجرة وبشراء الاراضي وبالاستقرار ونيل الامتيازات ، واخذوا يضطهدون العرب ويهملون شأنهم فتبقى مدُنهم وقراهم على ما كانت عليه، فنشأ الجيل العربي في فلسطين جيلًا جاهلًا ضعيفاً فقيراً ! بعدئذ قام الانكليز بافساد الخلق العربي فنشروا المسكرات بين الشبان وخصوصاً من أهل البيوتات الكبيرة حتى ندر أن نجد بين رجال الطبقة الاجتماعية العليا من لا يشرب الوسكي ولا يلعب البريدج ... لاهين بذلك بعض اللهو أو كله عن الاهتمام بحال بلادهم !

---

١ – « شاعران معاصران » ص ١٠٤ و ١٠٥ .

٢ – « الاتجاهات الادبية » ١ : ١٤٧ .

٣ – « الاتجاهات الادبية » ١ : ١٤٧ .

أما الطبقات الوسطى والدنيا فتولىّ اليهود أمرها ، يُسهلون لها سبل الفسق في كل مكان فيسلبونها صحتها ومالها وأخلاقها ويعود الانكليز واليهود معاً الى جميع الطبقات في فلسطين فيغرونهم بالأموال لبيع أراضيهم ويبذلون لهم فيها أثماناً جنونية ، فالفلاح الذي كان لا يستغل أرضه إلا ببضع جنيهات في العام باع أرضه بعشرات الألوف ، ولكنّ هذه الاثمان لم تفد عرب فلسطين كثيراً لأن اليهود كانوا يأخذون منهم بالشمال ما يعطونهم باليمين ، كما يقول ابراهيم !

كان الفلاح يبيع أرضه بعشرة آلاف جنيه مثلاً فتتعلق به فتاة يهودية ولا تزال به حتى تبتزّ بدلالها ودهائها منه آخر جنيه منها ، ثم يعود هو فلا يجد فلساً من ثمن أرضه ولا يجد أرضه !

إنّ هذه السياسة لم تكن قاصرة من جانب المستعمر على فلسطين وحدها ، ولكنّ المستعمر طبّقها تطبيقاً واسعاً مستعجلاً على فلسطين ، وأغربُ من هذا كله ان هذه السياسة تطبّق الى اليوم في أقطار مختلفة ولمّا ينتبه مجموعُ العرب بعدُ الى خطرها الداهم ! »

البلاء الأكبر : وشغل الاجنبي عربَ فلسطين بالسياسات المحلية التافهة ، وأغراهم بالتنافس على رئاسات البلديات وعضوية المجلس الاسلامي الاعلى ، واستفحلت الخصومات المحلية والنزاعات الانتخابية ، الامر الذي أيأس ابراهيم من صلاح الحال فنظم قصيدة خاطب فيها بني وطنه قائلاً :

بني وطني ، هل يقظة بعد رقدة ؟ وهل من شعاع بين تلك الغياهب ؟
فوالله ما أدري — ولليأس هبّةٌ — أُنادي (اميناً[1]) أم أهيبُ بـ(راغب[2]) !

---

١ — الحاج امين الحسيني .
٢ — المرحوم راغب النشاشيبي خصم الحاج امين .

حملة على السماسرة : وايقن ابراهيم ان السماسرة في فلسطين هم عامل بارز في ضياع البلاد وتهويدها على عجل فحمل عليهم حملات عنيفة مريرة في شعره الوطني !

« واشتدّت»[1] نقمة ابراهيم على باعة الاراضي وعلى الزعماء الذين كانوا « دلاّلين »... ثم زاد قنوطه من صلاح حال العرب في فلسطين ، وازداد تشاؤمه من الايام المقبلة وقرب جلاء العرب عن بلادهم فذكر ذلك في قصائد ومقطعات مختلفة نظمها في عام ١٩٣٥ :

– لا تلمني ان لم اجدْ من وميضٍ لرجاءٍ ما بين هذا السوادِ !
– اجلاءٌ عن البلاد تريدون فنجلو ، ام محقنا والإزاله ؟ !

وتظاهر اولئك « السماسرة » الفجّار بالغيرة على فلسطين والذود عن حياضها ، وما كانوا في الواقع إلاّ « لصوصاً » سهّلوا بيع الاراضي الواسعة وساعدوا على تهويد فلسطين ، فآلم ابراهيم بقاؤهم يسرحون ويمرحون بثياب « الزعامة » فوصفهم شاعرنا وصفاً ازال عنهم براقع الدجل وكشفهم للناس على حقيقتهم بقوله :

امّا سماسرةُ البلادِ فعصبةٌ عارٌ على اهلِ البلادِ بقاؤها !
إبليسُ اعلنَ صاغراً إفلاسَهُ لمّا تحقّقَ عنده إغراؤها
يتنعّمون مُكرّمين ، كأنما لنعيمهم عمَّ البلاد شقاؤها
هُمْ اهلُ نجدتها ، وان انكرتَهمْ وهمو ، وانفُكَ راغمٌ ، زعماؤها ! !
وحماتُها ، وبهم يتمُّ خرابُها وعلى يديهمْ بيعُها وشراؤها
ومن العجائب إن كشفت قدورَهم إنَّ الجرائدَ ، بعضُهنَّ غطاؤها
كيف الخلاص اذا النفوسُ تزاحمتْ أطماعُها ، وتدافعتْ اهواؤها ؟

١ – (شاعران معاصران) ص ١١٠ .

ألا قُبِّحتَ سمساراً : في ربيع عام ١٩٣٠ اجتمع في نابلس ثلاثة شعراء هم : عبد الرحمن عبد المجيد [١] والشيخ محمد البسطامي [٢] وابراهيم طوقان ، فطرح احدهم السؤال التالي شعراً :

رعاكَ اللهُ ما تصنعُ   لو لاقيتَ سمساراً ؟ !

فاستطاب ثلاثتهم السؤال وتداولوا بهذه الابيات :

اذا الفيتُهُ في الدارِ   اهدمُ فوقه الدارا
واجعلُ فوقه الاحجا   رَ لا اترُكُ احجارا !
واجمعه بلقاطٍ   وأضرِمُ فوقه النارا
أصوِّبُ بين عينيه   ادقُّ هناك مسمارا
أعلّقُ (لوحةً) فيها :   « الا قُبِّحتَ سمسارا ! »

وكان ابراهيم يشكو قلّة المخلصين من الذين يتصدّون للزعامات والمناصب ، ردّد شكواه في مناسبات كثار من ذلك قوله :

رحمَ اللهُ مخلصاً لبلاد   ساوموه الدنيا بها فأباها
لو أتوه بالتبر وزنَ ثراها   لأباهُ وقال: «أفدي ثراها !»
َصكّت الالسنُ المسامعَ حتى   لقيتْ من ضجيجكم ما كفاها !

وفي عام ١٩٣٥ اشتد النزاع على رئاسة بلدية القدس ، فقال ابراهيم يخاطب المتنازعين عليها :

بَلِيَتْ قضيتُكم فصا   رتْ هيكلًا يتهدّمُ

---

١ - من نابلس اصلا وقد توفي عام ١٩٥٥ .
٢ — من نابلس اصلا ويعمل استاذاً .

ضُمِرَتْ الى بلديةٍ فيها العِدا تتحكّمُ

وتميّزَ ابراهيم بتعاليه عن المجاملة وتساميه عن الانزلاق مع النزعات والاهواء، وأحبّ شاعرنا وطنه فوق حبُه لوالديه واهله ، ووضعه فوق الاحزاب المهلهلة والزعامات المنحطة وفي ذلك يقول :

إنّ قلبي لبلادي لا لحزب او زعيمِ
لم أبعْهُ لشقيق أو صديق لي حميمِ
ليس مني لو أراهُ مرة غيرَ سليم !
ولساني كفؤادي نيط منه بالصميمِ
وغدي يُشبه يومي وحديثي كقديمي
لم أهبْ غيظَ كريم لا ولا كيدَ لئيمِ
غايتي خدمةُ قومي بشقائي أو نعيمي

ولَعَنَ ابراهيم الاحزابَ وما خلّفتْ في فلسطين من تطاحن وثارات ، وعداوات وحزازات ، فندّد بأقطابها وقارنَ بين ما تفعل الأحزاب اليهودية من من أجل تحقيق اهدافها ، وبين ما تفعله احزابنا من إضرام نار الفتن والأحقاد في البلاد ، غير عابئة بما يُصيب الأمة من نكسات ونكبات، تُعيد قضيتنا القهقرى، وتنزل بالأمة أفدح الخسائر :

ما بالُكُمْ ، بعضُكُم يُمزّقُ بعضاً أفزعتُمْ من العدوّ اللدودِ ؟ !
اذهبوا في البلادِ طولاً وعرضاً وانظروا ما لخصمكم من جهودِ !
والمسوا باليدين صرحاً منيعاً شادَ أركانَهُ بعزمٍ وطيدِ
كلُّ هذا استفاده بين فوضى وشِقاقٍ وذلةٍ وهجودِ !

واشتغالٍ بـ (الترّهات) وحبّ الذات عن نافعٍ عميمٍ مجيد !

شَهِدَ اللهُ انّ تلك حياةٌ فُضِّلَتْ فوقها حياةُ العبيد !

وكانت نزوع ابراهيم الحزبية البغيضة التي تَفَشَّتْ في فلسطين شلواً فشلواً وتركتْ الزعامات البالية في كيان الوطن تصدّعاً وخراباً ، وفي الصفوف تفككاً واحترابا :

(وطني) أخافُ عليكَ قوماً أصبحوا يتساءلون مَنْ (الزعيمُ) الأليقُ ؟
لا تفتحوا بابَ الشقاقِ فإنه بابٌ على سودِ الحوادثِ مُغلقُ !
واللهِ لا يُرجى الخلاصُ وأمرُكُمْ فوضى وشملُ العاملين ممزّقُ !

« وكان[1] في فلسطين مواسم شعبية متعددة يُقيمها الناسُ في اماكن مختلفة ، أشهرها : موسم النبي موسى في القدس ، وموسم النبي روبين في يافا ، وتعود هذه المواسم الى ايام الحروب الصليبية وقد ابتكرها صلاح الدين الأيوبي حتى يكون الشعب مجتمعاً مرة بعد مرة في اماكنَ مُعينة بعاطفة دينية وطنية ، فتظلُّ شعلةُ الدين والوطنية متّقدة في النفوس ، كما تكون الجموع نفسها ارهاباً للصليبيين !

ولما انقضت الحروب الصليبية زال المعنى المقصود من تلك المواسم ولكنها بقيت اعياداً رمزية ، فلما احتلّ الانكليز فلسطين وبدأ امر اليهود يستفحل عاد لهذه المواسم شيء من معناها الأول ، وكان الانكليز عادة يتخذون لمناسبة هذه المواسم احتياطات مختلفة غايتها ، في الاكثر ، ان يدافعوا عن اليهود لو وَقَعَ عليهم اعتداء من جانب الجموع المحتشدة ، وفي عام ١٩٣٥ - عام النزاع الشديد على الانتخابات البلدية - اتخذت الحكومة الانكليزية احتياطات اوسع !

وكان يصحب موسم النبي موسى موكب يسير على رأسه قائد الموسم يركبُ

---

١ - (شاعران معاصران) ص ١١١ .

جواداً ويحيط به حملة السيوف مما أصبح مع الايام مظهراً فارغاً ، وفي هذا العام قال ابراهيم سبعة ابيات يُعرّض فيها بذلك المظهر الفارغ ويشير الى عنعنات العرب بعد ان يخاطب الحكومة الانكليزية ويلومها على كثرة احتياطاتها التي لم يبقَ لها بعد استفحال التنازع بين العرب مبرّر كبير ، قال ابراهيم :

علامَ احتراُسكِ ؟ لا أعلمُ ! وفيما احتشادُكِ ؟ لا افهمُ !
وهل في فلسطين ما ترهبين سوى انه اجتمع الموسمُ ؟!
جوادٌ براكبه عاثرٌ ..! وأينَ له الفارسُ المُعْلَمُ ؟!
وسيفٌ بحامله ساخرٌ وابنَ له الكفُّ والمعصمُ ؟!
وهذا بتهديده يدّعي وذاك بتنديده يزعُمُ !
معازيلُ إلاّ من العنعناتِ مشاغيلُ عن كلِ ما يُكرمُ
مظاهرُ ليس بها ما يُخيفُ ولكنما خافَ من يَظلمُ !

وابراهيم لا يلوم الانكليز على افعالهم التي تؤول الى تأمين مصلحتهم ما داموا اقوياء ! فالقوي لا ينحني إلاّ أمامَ القوة ! ولكنه يلوم العرب الذين يخدعون انفسهم حينما يظنون ان الضعيف يستطيع ان ينال من القويّ حقاً من طريق المسالمة و (السياسة) ! قال ابراهيم سنة ١٩٣٣ :

نبّئوني عن القويّ ، متى كا نَ رحيماً ؟هيهاتَ ، مَنْ عزّ تاها
لا يلين القويّ حتى يلاقي مثله عِزّةً وبطشاً وجاها !

وقال سنة ١٩٣٥ :

يا مَنْ تعلّلَ بالسياسة ظنّها لَطُفَتْ ولانَ عصيُّها الجبّارُ
ما لطفُها؟ما اللينُ ذاك؟وكلّهم مستعمرونَ وكلُّهُ استعمارُ !

وفي موسم تالٍ أخذ ابراهيم يخاطب ذلك الموسم برباعيات مختلفة القافية ، متسائلًا عن ذكريات حيّة في صدر كل عربي مؤمن ، وعى تاريخ السلف الصالح، ووقف على ما للأجداد من مفاخرَ وامجاد :

أيها الموسمُ هل انت سوى صورة المجدِ الذي كانَ لنا ؟!
قد مشى الدهرُ عليه وطوى صُحُفاً كنّ سناءً وسنى !

. . .

يا شواظَ الحربِ ترمي بِشَرَرْ يتركُ الآفاقَ في لونِ الدمِ
يا لظى (حطّين) نشوى بالظفَرْ يا (صلاحَ الدين) خلّد وانعمِ
لكَ في التاريخ ايامٌ غررْ كُتبَتْ بالسيفِ لا بالقلمِ
ورواها الكونُ فيما قد روى فاسمعوها وخذوها سُننا !
أيها الموسم هل انتَ سوى صورة المجدِ الذي كان لنا ؟!

. . .

أيها الموسمُ هل بين الجموعْ غير ترداد صدى النصر المبين !
أ (صلاحُ الدين) حيٌّ في الربوعْ أم سيوفُ الفتح فيها ينجلين ؟
أين قومٌ جهلوا معنى الخضوعْ ذهبَ الآباءُ .. تعساً للبنين !

. . .

حلّقَ المجدُ بهم ثم هوى وانثنى ينشدُهم لما انثنى
أيها الموسمُ هل انت سوى صورة المجدِ الذي كان لنا ؟!

ساسة وهجوة : وفي عام ١٩٣٥ تفجّرت قريحة ابراهيم بالشعر السياسي إذ

شرع ينظم مقطوعات وطنية الواحدة من سبعة ابيات ، واخذ ينشرها في كل اسبوع في جريدة (الدفاع) (يافا) وفي (صوت الاحرار) (بيروت) فأثارت تلك المقطوعات اهتمام الاوساط الحزبية ، إذ كانت حرباً عواناً على دعاة الزعامة ورجال الحركة ، واقبل القراءُ على التهامها لما تضمّنتْ من تصوير صادق للواقع الفلسطيني ، وقد خاطب ابراهيم (زعماء) بلاده بشعر مُرّ لاذع بعنوان (انتم ...!) :

انتمُ (المخلصونَ) للوطنيهْ — انتمُ الحاملونَ عبءَ القضيهْ !!
انتمُ العاملون من غير قولٍ !! — بارك اللهُ في الزنودِ القويّهْ !!
و (بيانٌ) منكم يعادلُ جيشاً — بمعدّاتِ زحفهِ الحربيهْ !!
و (اجتماعٌ) منكم يردُّ علينا — غابرَ المجدِ من فتوحِ أميّهْ !!
وخلاصُ البلادِ صار على البا — بِ ، وجاءَت اعيادُه الورديّهْ !!
ما جحدنا (افضالكم) ، غير انّا — لم تزلْ في نفوسنا أمنيّه !!
في يدينا بقيةٌ من بلادٍ — فاستريحوا كيلا تطيرَ البقيّه !!

وتفاقم الخلاف الحزبيّ ، وتَفَشّى التطاحنُ العصبيّ في فلسطين فآلم ابراهيمَ هـذا المصير المرير ، وخاطب (القدس) بوصفها مقرّ ذلك التطاحن المقيت البغيض بقوله :

دارَ الزعامةِ والأحزابِ كان لنا — قضيةٌ فيكِ ، ضيَّعنا امانيها
هل تذكرين وقد جاءتكِ ناشئةً — غنيةً دونها الأرواحُ تفديها
تودُّ لو وجدتْ يوماً اخا ثقةٍ — لديكِ يُوسِعُها بِرّاً ويحميها
ما كان كفؤاً عفيفَ النفس كافلها — ولا ابيّاً حميَّ الأنفِ راعيها
ولا أفادتْ سوى الاحقادِ تُضرِمُها — فوقَ البلادِ (زعاماتٌ) وتذكيها
ولم تُبالِ بما تلقي لها حَطَباً — ولا بأيّ كرامِ الناس ترميها
قضيةٌ قتلوها بعد ما قُتِلَتْ — ما ضرّ لو فتحوا قبراً يواريها !

وفي شعر حماسيّ لاهب ، لا بكاءَ فيه ولا استخذاء ، ارسل ابراهيم شعره صرخات مدويّـةً حفزاً للهمم وإثارة للشعور بالعزة والإباء ، وهتكَ البراقع الشفـّافة عن الزعماء بقوله :

لا تُبالي بألفِ خَطْبٍ عراها نفسُ حُرٍّ مفجوعةٌ بحِماها
شفّها الغيظُ والأسى وتراها كَظَمَتْ غيظها ، وأخفتْ أساها
كلما أوشكتْ تسيلُ دموعي مَلَكَ اليأسُ غربَها فثناها
لا تلمني ، فكمْ رأيتُ دموعاً كاذباتٍ ضحكتُ ممّن بكاها
قد سقى الأرضَ بائعوها بكاءً لعَنَتْهُمْ سهولُها ورُباها

وطني مبتلىً بعُصْبةِ (دلاّلين) لا يتّقون فيه اللهَ

في ثيابٍ تُريكَ عِزّاً ولكنْ حَشْوُها الذلُّ والرياءُ سَدَاها
ووجوهٍ صفيقةٍ ليس تندى بجلودٍ مدبوغةٍ تغشاها !
وصدورٍ كأنّهنَّ قبورٌ مظلماتٌ قلوبُهمْ موتاها !
حُسبوا في الرجالِ ، هلْ كانت الأنعامُ إلاّ لمثلهم أشباها ؟ !

• • •

يا رجالَ البلادِ يا قادةَ الأمةِ ماذا دهاكمُ ودهاها ؟ !
هلْ لديكمْ سياسةٌ غيرَ هذا القولِ يُحيي من النفوس قواها ؟ !

صكّت الألسنُ المسامعَ حتى لقيتْ من ضجيجكم ما كفاها
عرفَ الناسُ والمنابرُ والاقلامُ افضالَكمْ فهاتوا سواها !
كلكمْ بارعٌ بليغٌ ـ بحمد الله ـ طبٌّ بحالنا ودواها !
غيرَ ان المريضَ يرقبُ منكمْ هذه الجرعةَ التي لا يراها
كان أولى بكم لو أنّ مع القولِ فعالاً محمودةً عقباها

مَثَلُ القولِ لا يؤيّدُهُ الفعلُ ، أزاهيرُ لا يفوحُ شذاهـا !
وهو كالدوحةِ العقيم : ظلالٌ واخضرارٌ ولا يُرجّى جناها
رحمَ اللهُ مخلصاً لبـلادٍ ساوموه الدّنيا بها فأباها
لو أتـوهُ بالتبرِ وزنَ ثراها لأباهُ وقالَ : أفدي ثراهـا !
أنفروا أيهـا النيامُ فهذا : يوم لا ينفعُ العيونَ كراها
كُشِفَتْ منكمُ المقاتلُ وامتدّت اليها المثقّفات قناها
نبّئوني عن القويّ متى كان رحيماً ، هيهاتَ مَنْ عَزّ تاها
لا يلينُ القويُّ حتى يُلاقي مثلَهُ عِزّةً وبطشاً وجـاها
لا سَمَتْ أمّةٌ دهتها خطوبٌ أرهقتها ولا يثورُ فتاها !

سراب : وبينا كانت الاراضي العربية في فلسطين تتسرب الى ايدي اليهود في مساحات شاسعة كان بعض اللبنانيين يحسدون باعة الاراضي ، ضعاف الايمان ، على الاثمان التي يقبضونها لقـاء تلك الاراضي وعلى النعمة الزائفة الزائلة التي ابطرتهم ردحاً من الايام . . . !

وكان ابراهيم ، يرحمه الله ، يسخر من تلك المظاهر الفارغة ويدرك أن اليهود يستردون باليسرى ما دفعوه باليمنى بوسائل شيطانية رخيصة لا تُشرّف صاحبها، فصوّر حسد اللبنانيين في قصيدة نشرتها جريدة (صوت الاحرار [1]) ونبّه الى الوضع الرهيب والى الخطر المحدق بالبـلاد من جراء تسرّب الاراضي في ايدي أعداء البلاد :

يقولون في بيروت : أنتُمْ بنعمةٍ تبيعونهم تُرْباً ، فيعطونكم تبرا
شقيقتَنا مهلاً ! متى كان نعمـةً هلاكُ ألوفِ الناس في واحدٍ أثرى ؟ !
وباذلُ هذا المـالِ يعلمُ انه يسلّمُ باليمنى الى يده اليسرى ! !

---

(1) — العدد الصادر في ٢٠ نيسان ١٩٣٥ .

على أنها أوطانُنا ... ما كنوزُهم ؟ وأموالُهم؟ حتى تساوي بها قَدْرا ؟!
ولو كان قومي أهلَ بأسٍ ونخوةٍ إذن أصبحتْ للطامعين بهـا قبرا
ولكنهم قد آثروا السهلَ مركباً تُسيِّرُهُ الاهواءُ واجتنبوا الوعرا
وما حسرتي إلاّ على مُتعفّفٍ يقوم (لوجهِ الله) بالنهضة الكبرى !

ولم ينسَ ابراهيم ، وهو شاعر الأمة المشردة ، ان يُنبّه قومه الى ما يُراد بهم من شقاء وبلاء ، ويصوّر لهم الاخطار المحدقة بفلسطين من جراء بيع الأراضي وانصراف السماسرة ، بلا خجل ، الى خدمة العدوّ المتحفّز للوثوب وتحقيق أطماعه التي لا تقفُ عند حدّ :

باعوا البلادَ الى اعدائهم طمعاً بالمال لكنما أوطانهم باعوا ...!
قد يُعذَرون لو انّ الجوع أرغمهم والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
وبُلغةُ العارِ عند الجوعِ تلفظُها نفسٌ لها عن قبولِ العارِ ردّاعُ
تلك البلادُ اذا قلتَ : اسمها (وطنٌ) لا يفهمون ، ودون الفهمِ أطماعُ !

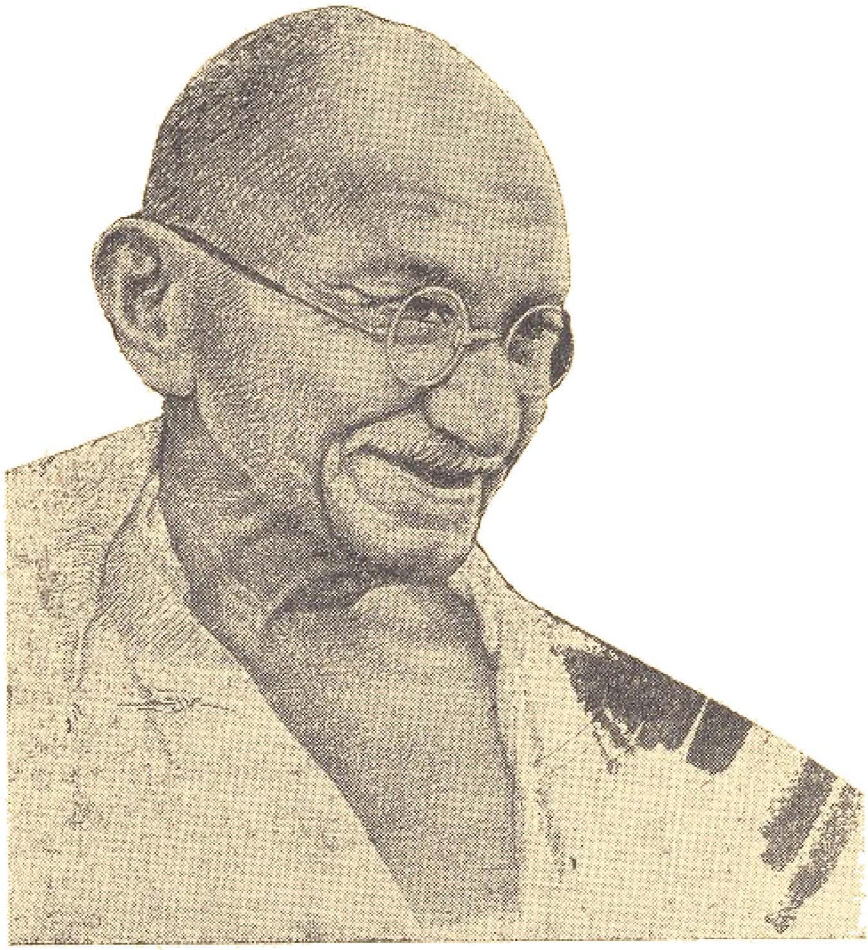
. . .

أعداؤنا ، منذ أنْ كانوا (صيارفةٌ) ونحن ، منذ هبطنا الأرضَ ، (زراعُ)
لم تعكسوا آية الخلاّقِ ، بل رجعتْ الى اليهود بكم قُربى وأطماع !
يا بائع الأرض لم تحفلْ بعاقبةٍ ولا تعلّمتَ ان الخصمَ خدّاعُ !
لقد جنيتَ على الأحفادِ ، والهفي وهم عبيدٌ ، وخدّامٌ ، وأتباعُ !!
وغرّكَ الذهبُ اللمّاعُ تُحرزُهُ إن السراب كما تدريه لمّاعُ !
فكّرْ بموتِكَ في أرضٍ نشأتَ بها وأترك لقبرك أرضاً طولها باعُ !

زعيم وزعماء : وفي عام ١٩٣٢ أنذر (غاندي) قديس الوطنية الهندية بريطانيا بالصوم مدى الحياة ، ما لم تغير سياستها الاستعمارية الغشوم في بلاده، فأخذ ابراهيم

يوازن بين (زعيم) هناك يقول ويفعل ... وبين (زعمـــاء) هنا هم في الواقع قوالون غير فعالين ... يخطبون طمعاً بأن تشير الصحافة الى اسمائهم وتؤطرهـــا بالثناء والتقريظ ... وهم في الحقيقة أصل الداء ، ورأس البلاء !

وراح ابراهيم يقارن بين (زعيم) مَحَضَ أمته قلبه ، ومهرهـــا حبّه ،



« المهاتما غاندي »

وبين (زعماء) مُـهرّجين يُسهّلون بيع الوطن وتهويده بشحناء وبغضاء طـــال مداهما :

حبّذا لو يصومُ منا زعيمٌ مثلُ (غاندي)عسى يُفيدُ صيامُهُ !

لا يَصُمْ عن طعامه في فلسطينَ يموتُ الزعيمُ لولا طعامُـــهْ !
ليَصُمْ عن مبيعه الأرضَ يحفظْ بقعـــةً تستريـحُ فيها عظامُـهْ
باركَ اللهُ فيحريصٍ علىالأرضِ غيورٍ يُنهى إليهـــا اهتمامُهْ
هُمْ حُماةُ البلادِ من كل سوءٍ وهُـمْ معقِلُ الحمى ودعامُـهْ
نهجوا منهجَ القويّ وصفّوا لجهادٍ منصورةً أعلامُـــهْ

. . . .

إنما عُدّةُ الضعيفِ (احتجاجٌ) لم يجاوزْ حدَّ السطورِ احتدامُهْ
كلّ يوم حزبٌ وحلمٌ فيحدّثْ عن ضعيفٍ سلاحُهُ أحلامُهْ
مُغرمٌ بالبلاد صبٌّ ولكنْ بسوى القولِ لا يفيضُ غرامُهْ
بَطلٌ ان علا المنابرَ ، كرّارٌ ، سريعٌ عند الفعالِ انهزامُهْ
آزروا القائمين بالعـــملِ الصالحِ[1] إنّ الأبيّ هذا مَقامُهْ
آزروهم بالمالِ فالأرضُ (صندوقٌ) لديكم ، بـــل قوامُهْ
اشتروا الأرض تشتريكم من الضيمِ وآتٍ مسوَدّةٌ أيامُـه !

ولئن ابتلت عوادي الأيام بلادَ العرب بـ (أشعب) واحد.. فقد ابتلت فلسطينَ بـ (أشعبين) اثنين .. وهنا ارسل ابراهيم من أعماقه صيحة ينبض كل حرف من حروفهـا بألم عصف بفؤاده وقطّعَ نيـــاطَ قلبـه أسىً وتفجعـاً على فلسطين :

ذهبَ الذين عهـدتهم لا يصبرون على الهوانِ

---

١ – اشارة الى القائمين بمشروع (صنــدوق الأمة) وكانت غايتة انقـــاذ الأراضي في فلسطين .

في مصرَ يطمع (أشعبٌ)   وهنا تباري (أشعبان)!
وهنا التخاذلُ في الشدائـــدِ والتشاؤم والتواني
والنفسُ يقتلُ عزمها   طولُ التعلّلِ بالأماني!

١٠٠٠ : وأخذ الجو . والبر .. والبحر.. يقذف فلسطين برواسب الشعوب وحثالاتهم ، فآلمَ ابراهيم هذا السرطان المستشري في وطنه ، وآذاه هذا الطاعون البشري الخبيث المتفشي في أمته ، وأفزعته تلك الهجرة العارمـــة المتواصلة فنظم شاعرنا قصيدة بعنوان (١٠٠٠) عدَّدَ فيها (ألف) ضربة أصابت فلسطين و(ألف ألف) مهاجر مهرّب غزاها و (ألف) سائح بلغها سراً و (الفاً) وطأهـا جهراً ولم يبارحها .. و(ألف) جواز شرعي و (ألف ألف) جواز مزوّر .. أباح لشذاذ الآفاق غزو فلسطين والاستقرار فيها توطئة لتهويدها سواء أرضي بذلك اهلهـــا الشرعيون أم أبوه :

أرى عدداً في الشؤم لا كثلاثةٍ   وعشر ، ولكن فاقَهُ في المصائب!
هو (الألفُ)..لم تعرف فلسطينُ ضربة   أشدَّ وأنكى منه يومـــاً لضارب
يهاجر (الفٌ) ثم (الفٌ) مُهرّباً   ويدخل (الفٌ)سائحاً ، غير آيب ..
و(الفُ) (جواز) ثم (الفُ) وسيلة   لتسهيل ما يلقونه من مصاعب !
وفي البحر (آلافٌ) .. كأن عبابَهُ   وامواجَهُ مشحونةٌ في المراكبِ

. . .

بني وطني ، هل يقظةٌ بعد رقدة   وهل من شُعاع بين تلك الغياهبِ؟!
فوالله ما أدري ، ولليأسِ هَبّةٌ   أنادي(اميناً) أم أُهيبُ بـ(راغبِ)؟

أصحابُ البطولات : وبعد أن طغى سيـــل الهجرة اليهودية على فلسطين وتكشفت عمليات تهريب الاسلحة إلى اليهود عن (براميل) من الأسمنت مُترعة

بشتى انواع الاسلحة قرّر الساسة العرب القيام بمظاهرات سلمية اسبوعياً في كل مدينة فلسطينية احتجاجاً على السياسة الطائشة الباطشة الرعناء !



المرحوم موسى كاظم الحسيني

وفي يوم الجمعة ٢٧ تشرين الأول سنة ١٩٣٣ خرج المصلون في يافا من جامع المدينة الواقع امام ساحة الساعة (السرايا) بمظاهرة سلمية سياسية مشى على رأسها

المرحوم موسى[1] كاظم (باشا) الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية العربية وبعض اعضائها وبعض من رؤساء الاحزاب السياسية ، لكنّ رجال الأمن اصطدموا بالمتظاهرين وطلبوا اليهم ان يتفرّقوا، لكنّ هؤلاء امتنعوا عن ذلك فأطلق البوليس النار على جموعهم فسقط بعض القتلى والجرحى وانهال عليهم رجال الأمن ضرباً بالهراوات ، ولكماً بالأيدي !

ونتيجة لهذه المظاهرة اعتقل الكثيرون من زعماء الحركة ووضعوا في سجن عكا وطلب اليهم ان يقدموا (كفالات حسن سلوك !) تمهيداً للافراج عنهم ، فقدموا (الكفالات) المطلوبة إلاّ المرحوم الشيخ عبد القادر المظفر الذي آثر السجن على تقديم (كفالة حسن سلوك !) إيماناً منه بان الكفالة المطلوب تقديمها لا تتفق وكرامة القضية !



المرحوم الشيخ عبد القادر المظفر

راقب ابراهيم هذه الرواية (البطولية) فآلمه ضعف الزعماء واستخذاء أصحاب (البطولات) فأنشأ يقول :

أحرارَنا قد كشفتم عن (بطولتكم) غطاءَها يوم توقيع (الكفالات)

---

١ – والد الشهيد المرحوم عبدالقادر الحسيني بطل (معركة القسطل) وقد استشهد يوم الخميس الموافق ٨ نيسان ١٩٤٨ .

أنتمْ رجالُ خطاباتٍ مُنمّقة كما علمنا ، وأبطالُ (احتجاجات) !
وقد شبعتم ظهوراً في (مظاهرة) (مشروعة !) وسكرتم بالهتافات !
ولو أُصيبَ بجرح بعضُكُم خطأً فيها ، إذاً لرتعتم بالحفاوات
بل حكمةُ الله كانت في سلامتكم لأنكم غيرُ أهل للشهادات !

. . .

أضحتْ فلسطينُ من غيظٍ تصيحُ بكم خلّوا الطريق فلستم من رجالاتي
ذاك السجينُ [1] الذي أغلى كرامته فداؤه كلُّ طلاّب الزعامات !

ولم يقف ابراهيم عند حدّ تمجيد الشيخ المظفر والتنويه بموقفه المشرف بل أوحى له اعجابه الشديد بصلابة عود المظفر أن يقول :

انظر لما فعل (المظفرُ) إنه نفع القضية غائباً لم يحضر .. !
أحيى القلوبَ ، ودونهن ودونه غرفُ الحديد . وحامياتُ العسكر
عرضوا (الكفالة) والكرامة عنده عبثاً ، وهل عَرَضٌ يقاسُ بجوهر ؟
ورأى التحيّرَ في التخيّرِ سُبّةً ففدى كرامته بـ (ستةِ أشهر) !
لم يخلُ ميدان الجهادِ بسجنه فلقد رماهُ بقلبه المتسعّرِ
ولكنّم خلا بوجود جيشٍ زاخرٍ يمشي اليه بخطوه المتعثرِ !
إن (المظفّرَ) من حديدٍ جسمهُ فيما أرى ، وجسومُهُم من سُكّرِ !

الايمان الوطني : كان ابراهيم معجباً بالخلق الالماني ، وبايمان الالماني بوطنه ، واعتباره : « المانيا فوق الجميع ! » .

---

١ – إشارة الى المرحوم الشيخ عبد القادر المظفر .

ولما بدت على الخلق العربي أعراض التفسخ والانحلال ، وتكشفت الزعامات عن اوبئة واوصاب ، جلس ابراهيم الى القرطاس وراح يداعبه واليأس مستحوذ على اعصابه بقوله :

ليتَ لي من جماعة (السّار) قوماً يتفانون في خلاص البلادِ
او كإيمانهم رسوخاً وعُمقاً ثابت الاصل في قرار الفؤادِ
مثل هـذا الايمان يَضمَنُ للأوطانِ عزّاً ، ومثل هذا التفادي
لا كإيمان من ترى في فلسطين ... قصير المدى ، كليلِ الزناد
يتداعى اذا تسلّطَ وعدٌ او وعيدٌ عليه عند العوادي
او قطوبٌ ... تخيبُ منه المساعي ، وابتسام ... تـذوبُ فيه المبادي
لا تلمني ان لم اجدْ من وميضٍ لرجاءٍ ما بين هذا السوادِ

ولم ينسَ ابراهيم في شعره الوطني الخالد المناضلين من بني هاشم ؛ فرثى اولاً الثائر الاول (الحسين بن عليّ [1] الذي غدر به حلفاؤه الانكليز ونفوه الى جزيرة قبرص في عام ١٩٢٥ ودفن في القدس بجوار الحرم الشريف ، باحتفال مهيب أسهمت فيه وفود من كافة الاقطار العربية ، ورثاه ابراهيم بقصيدة قال فيها :

رحمةُ الله عليه إنه غالَه اليأسُ ، وكان الأملا
ويح قومٍ خذلوه بعدما أخذوا الميثاقَ ألاّ يُخذلا
شيمةُ الغدر بمن ينصرُهم ذهبت يا (ابن عليٍّ) مثلا !
آلَ بيتِ المصطفى لم تبرحوا تَـرِدونَ الموتَ في ظل العُلى
كادتِ الكأسُ التي في (قبرص) تشبه الكأسَ التي في (كربلا) !

---

١ — في يوم الخميس الموافق ١٨ حزيران ١٩٢٥ نزل « الحسين بن علي » الى البارجة « دلهي » فأبحرت به الى قبرص فنزل في « لياسول » يوم ٢٢ منه وامضى ست سنوات في المنفى ، وفي ٣ حزيران ١٩٣١ اختاره الباري تعالى الى الرفيق الأعلى .

« وكثيراً ما كان ابراهيم يأخذ من مناسبة الرثاء نهزة يتطرق فيها الى القول



المغفور له الملك حسين بن علي

في قضية فلسطين وفي احوال هـذه البلاد المنكودة التي ابتليت بشتى الادواء فإذا المرثية ، إلاّ أقلّها ، شعر وطني سياسي ! »

وفي عام ١٩٣٣ سافر المغفور له الملك فيصل الأول إلى اوروبا . وبسبب فتنة قام بها الاشوريون في العراق واذكى الانكليز نارها ، هبّ شبله (غازي) واخمد



المغفور له الملك فيصل الأول

أوارها ووقف منها موقفاً صلباً ، فاضطر باني العراق الأول الى الرجوع لعاصمة ملكه. وما لبث ان استأنف رحلته إلى اوروبا فوافاه الاجل المحتوم في سويسرا ليلة

الثامن من ايلول ١٩٣٣ ونقل جثمانه بحراً الى الوطن وبلغ حيفا، حيث كانت وفود من العراق وسوريا وفلسطين والاردن قد زحفت للقائه ، وفي حفلة كبرى أقيمت في عمان تنويهاً بجهاد هذا المناضل العربي ألقى ابراهيم قصيدة نابضة بالقوة والحياة والعاطفة، وما ان فرغ من إلقائها حتى أقبل عليه المغفور له الملك عبدالله بن الحسين معانقاً ومهنئاً على هذه الخريدة الفريدة:

شيّعي الليلَ وقومي استقبلي طلعةَ الشمس وراءَ (الكرملِ)!
واخشعي، يوشكُ ان يغشى الحمى يا فلسطينُ سنىً من (فيصلِ)

يا لها من ديمة يرفعُها منكبُ الافقِ لعين المجتلي
نشأت امناً وظلّاً وهُدى كهدى النجمِ لفلك مقبلِ

ما دنا حتى همى الدمعُ فهل «إيلياءُ» الغيثِ فوق الجبلِ ؟
ذلك الفُلكُ الذي يحملُهُ مثلَه منذ جرى لم يحملِ

لو تعدّى لُجّةَ البحر به خاض في لُجّةِ دمعٍ مُسبلِ
وانطوى العاصفُ والموجُ له فاكتسى البحرُ غضونَ الجدولِ
وإذا بالفلك يجري بينها كمرورِ الطيفِ بين المُقَلِ
يكرمُ الراقدَ يدري أنه يؤثرُ الراحةَ والقلبَ الخلي

راقدٌ ينعُمُ في ضجعته خلّفَ الدنيا به في شُغُلِ
أيقظَ اللوعةَ فيها والأسى وغفا بينهما لم يحفلِ
مطبقَ الاجفانِ عن جفنٍ طغى جامح الدمعِ وجفنٍ مُجفلِ
مطمئنُّ القلب مـا تزعجهُ زفراتٌ كالغضا المشتعلِ

وما ان بلغ شاعرنا البيت الرابع عشر من مرثيته حتى تلفّتَ الى (فلسطين) وخاطبها متسائلاً عن أرضها العربية كيف تهوّدت ... وتسربت للخصم الماكر الزنيم !!

لكنّ (فلسطين) سرعان ما تستر وجهها حياءً لئلا يلمحُ الضيف الكبير امائر الخزي والخجل والعار على خدّيْها :

ما الذي أعددتِ من طيب القِرى يا (فلسطين) لضيفٍ معجل ؟
لا أرى أرضاً نلاقيه بها قد أضاع الارضَ بيعُ السفَلِ
فاستري وجهك لا يلمح على صفحتيه الخزيَ فوق الخجلِ !

ُترى بعد ان وقف القارىء على رثاء بطلي الثورة العربية الكبرى المغفور لهما (الحسين بن عليّ) و (فيصل بن الحسين) ألا يتساءل عما اذا كان لابراهيم منظومة في تمجيد الثورة ذاتها ! إن الجوابَ عن هذا التساؤل نجده في النشيد التالي :

– ١

اطلقي ذاكَ العيارا قدْكِ ضيْماً واصطبارا
ُيطلَب العزّ ابتدارا يدركَ المجد اقتسارا

اطلقي ذاك العيارا

حطّمي القيد الثقيلا واركبي الهولَ سبيلا
عاشَ يا نفسُ ذليلا بكِ من كان بخيلا

اطلقي ذاكَ العيارا

دبّري الامرَ نهارا واطلبي الحقّ جهارا
واهبطي الهيجاء دارا ذلّ من يُغفل ثارا

اطلقي ذاك العيارا

يا لأعناقِ الرجالِ كيف مالتْ بالحبالِ
هاكِ اشبالي ومالي وعتادي للقتالِ

اطلقي ذاك العيارا

أعْنَقَتْ تسري انتشارا فكرة تحمل نارا
تهبط القلبَ قرارا تُلهبُ الصدرَ استعارا

اطلقي ذاك العيارا

عَلِقَتْ ثَمّ يداه بزنادٍ فطواه
أضرم البيدَ سناهُ ثُمّ ردّدنَ صداه

اطلقي ذاك العيارا

— ٢ —

أُنظري يوم أغارا أيّ أبطال أثارا

أيّ كاساتٍ أدارا بين صرعى وسُكارى

اطلقي ذاك العيارا

احشدي البيدَ أسودا واملأي الشامَ حقودا
ووعوداً وعهودا وبنوداً وبنودا

اطلقي ذاك العيارا

المنايا تتبارى والاماني الكبارا
طبّقي الارضَ انتصارا واعتزازاً وافتخارا

اطلقي ذاك العيارا

أغدري غدرَ القويّ بالحسين بن عليّ [1]
لستِ بالخلّ الوفيّ للحليفِ العربيّ

فاملأي التاريخَ عارا

أمّتي، قدْكِ اصطبارا فاطلبي العزَّ ابتدارا
وخُذي المجدَ اقتسارا هاجَني الماضي ادّكارا

أطلقي ذاك العيارا

---

١ — الضمير يعود الي بريطانيا .

وفي أعقـــاب آذار ١٩٣٤ توفيّ المرحوم موسى كاظم (باشـا) الحسيني رئيس اللجنـة التنفيذية العربية ، وفي حفلة الاربعين التي أُقيمت في القدس وقف ابراهيم وأنشد :

وجهُ القضيةِ من جهادِكَ مُشرقُ ... وعلى جهادِكَ من وقارِكَ رونقُ
للهِ قلبك في الكهولةِ إنـــه ... تركَ الشبيبةَ في حياءٍ تطرقُ
قلبٌ وراءَ الشيبِ متّقدُ الصّبا ... كالجمرِ تحت رمـــاده يتحرّقُ
أقدمتَ حتى ظلّ يعجبُ واجماً ... جيشٌ من الأيامِ حولك مُحدِقُ
تلك الثمانونَ التي وفـّيتهـا ... في نصفها عـذرٌ لمن لا يلحقُ
لكنْ سبقتَ بها ، فمـا لمقصّرٍ ... سببٌ لمعـذرةٍ بـــه يتعلقُ
عمّرتـَها كالدوحِ ظـــاهرُ عودِهِ ... صلِبٌ وما ينفكّ غضاً يورقُ

وما ان بلغ ابراهيم هذه الأبيات السبعة حتى انصرف عن المرثي الى مخاطبة (فلسطين) وطنه المغصوب :

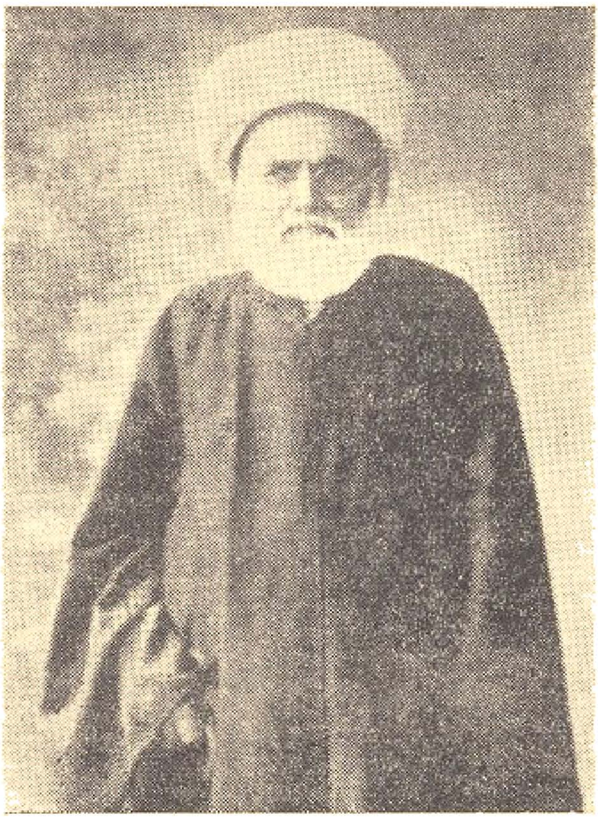
وطني أخافُ عليك قوماً اصبحوا ... يتساءَلون : من الزعيمُ الأليقُ ؟ !
لا تفتحوا باب الشقاقِ فـــإنه ... بابٌ على سودِ العواقب مُغلَقُ !
واللهِ لا يُرجى الخلاصُ وأمرُكم ... فوضى ، وشملُ العاملين ممزّقُ ! !
أينَ الصفوفُ تـَنَسـّقَتْ فكأنما ... هي حائطٌ دون الهوانِ وخندقُ ؟ !
أينَ القلوبُ تآلفتْ فتـدافعتْ ... تغشى اللهيبَ وكلُّ قلبٍ فيلقُ ؟ !
أينَ الأكف تصافحتْ وتساجلتْ ... تبني وتصنعُ للخـلاصِ وتـُنفِقُ
أمـــا الزعامة فالحوادثُ أمـُّها ... تُعطى على قدرِ الفداءِ وتُرزقُ

• • •

يا ابنَ البلادِ وأنت سيدُ أرضها ... وسمائهـــا ، إني عليكَ لمشفقُ !
أنظرْ لعيشكَ هل يسرّكَ أنـه ... وِرْدٌ يفيض وهجرةٌ تتدفقُ ؟ !

ماذا يردُّ الظلمَ عنك ، أحسرةٌ ... أم زفرةٌ ، أم عبرةٌ تترقرقُ ؟
أم بثُّك الشكوى تظنُّ بيانَها ... سحراً وحجّتُها الضحى يتألقُ !
لا تلجأنَّ اذا ظُلمتَ لمنطقٍ ... فهناكَ أضيعُ ما يكونُ المنطقُ !!

وفي عام ١٩٣٥ فجعت (الضاد) أمّ اللغات بشاعرها الفذ المرحوم عبد المحسن الكاظمي [١] فأقيمت في يافا حفلة تأبين كبرى ، تخليداً لذكراه ، كان في خطبائها المرحومون : اسعاف النشاشيبي وابراهيم وعبد القادر المازني واسعد داغر والشاعر (أبو سلمى) . وفي تلك الحفلة تلا ابراهيم مرثية منها قوله :



المرحوم عبد المحسن الكاظمي

سَلْ جنةَ الشعر ما ألوى بدوحتها
حتى خلَت من ظلال الحسن والطيبِ
ومن تصدّى يردُّ السيلَ مزدحماً
لما تحدّرَ من شُمِّ الأهاضيبِ !
ومَنْ أغار على تلك الخيامِ ضحىً
يبيحُ تقويضَها من بعد تطنيبِ
هي المنيةُ ما تنفكّ سالبةً
فما تغادرُ حيّاً غير مسلوبِ

---

١ — من فحول الشعراء العراقيين ، ولد في عام ١٨٧٠ وهتف في رسائل الفها ، وقصائد نظمها ، فأصابه ما يصيب دعاة الحرية في بلاد الاستبداد من اذى وكيد ، وحاق به من الخطر من كل جانب ، فلاذ بالوكالة الايرانية في بغداد وهاجر من وطنه ، العراق ، في عام ١٨٩٧ الى ايران فالهند ، وانتهى به المطاف الى القاهرة ، في عام ١٨٩٩ وتوفي فيها عام ١٩٣٥ ، وهو آية في ارتجال الشعر الجيد .

حق العروبة أنْ تأسى لشاعرها وتذرفَ الدمعَ منهّلًا بمسكوبِ
وترسلَ الزفرةَ الحرّى مصدعةً ضلوع كل عميد القلبِ مكروبِ
مَنْ للقريضِ عريقاً في عروبته يأتي بسحرٍ من معنىً وتركيبِ
ومَنْ لغرٍّ القوافي وهي مشرقةٌ « كأوجهِ البدويات الرعابيبِ » !

وبعد أن خصّ الفقيد بثمانية ابيات التفت يخاطبُ العرب اللاهين وفلسطين الفجيع بقوله :

(أبا المكارمِ) قُمْ في الحفلِ مرتجلًا [1] مهذّباتك لم تُصقلْ بتهذيبِ !
وأضرم النارَ إنّ القومَ هامدةٌ قلوبُهمْ ، ذلّ قلبٌ غير مشبوبِ
وانفخْ اباءَك في آنافهم غضباً فقد تُحرّكُ أصنامَ المحاريبِ !
تمكّنَ الذّلُ من قومي فلا عجبٌ ألاّ يبالوا بتقريعٍ وتأنيبِ !
ما أشرفَ العذرَ لو أنّ الوغى نثرتْ اشلاءَهم بين مطعونٍ ومحروبِ
لكنْ دهتْهُمْ أساليبُ العداة وهمْ ساهونَ لاهونَ عن تلك الأساليبِ
ويقنعون بمبذولٍ يلوّحُهُ مستعمروهم بتبعيدٍ وتقريبِ
كأنهم لم يُشيّدْ مجدُ أولهم على السيوفِ واطرافِ الأنابيب
يا رائداً كلّ أرضٍ أهلُها عربٌ يجتازها نضْو تصعيد وتصويب
ومنشداً عندهم علماً ومعرفةً بحالهم بين إدلاجٍ وتأويبِ
هل جئتَ منهم أُناساً عيشهم رغدٌ ؟ أم هل نزلت بقطر غير منكوبِ ؟
أم أيّ راعٍ بلا ذئبٍ يجاوره إن لم تجدْ راعياً شرّاً من الذيبِ !

. . .

تبوّأ (الكاظميُّ) الخلدَ منزلةً يلقى من اللهِ فيها خيرَ ترحيبِ
(أبا المكارم) أشرفْ من عُلاك وقُلْ أرى فلسطين أم دنيا الأعاجيب !

---

[1] – اشتهر المرحوم (الكاظمي) بارسال الشعر بديهة وارتجالاً متى عن له ذلك .

وانظرْ الينا وسرّح في الحمى بصراً ... عن المدى لم يكن يوماً بمحجوب !
تجد قوياً وفى وعدَ الدخيل ولم ... يكنْ لنا منه الاّ وعدُ عرقوبِ !
ومرّ سبعٌ وعشرٌ في البلاد لهُ ... وحكمهُ مزْجُ ترهيبٍ وترغيبِ
قد تنتهي هذه الدنيا وفي يــده ... مصيرُنا رهنُ تدريبٍ وتجريبِ
حالٌ أرى شرّها في الناس منتشراً ... وخيرُهـا للمطـايا والمحاسيبِ !

. . .

هلْ في فلسطين بعد البؤسِ من دعةٍ ؟ ... أم للزمان ابتسامٌ بعد تقطيبِ ?!
كمْ حقّقَ العزمُ والاعجالُ من أملٍ ... وخابَ قصدٌ بإمهـالٍ وتقليبِ !

نبوءة شاعر : وكلما انتابت فلسطين غوائلُ الدهر وعواديه ، عزا ابراهيم مُصابها لدعاة الزعامة وظلّ يناوئهم ويُشهّر بهم ويُشهِرُ عليهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، وفي عام ١٩٣٤ شنّ حملة قاسية على اولئك الأصنام واتهّمَ الصحافـــة بالتهويشِ وتضليل الشعب البريء الساذج ، وبصراحة تميّزَ بها شاعرنا أنشد قومه في كل قطر عربي ، بلا مواربة ولا التواء قوله :

إخواننَا أهلَ الوفاءِ ... أهــلَ المودة والولاءِ
من كل قُطرٍ بالعروبةِ ... ذي ازدهارٍ وازدهاءِ
أحبابَنا لا تُخدعوا ... عنّا بظاهرةِ الرّخاءِ . !
ليستْ فلسطينُ الرخيّةُ ... غيرَ مهـدٍ للشقـاءِ
عُرضت لكم خلفَ الزجاجِ ... تميس في حُللِ البهاءِ
هيهاتَ ذلك انّ في ... بيع الثّرى فقد الثّراءِ
فيه الرحيلُ عن الربوعِ ... غــداً الى وادي الفناءِ !
فاليوم أمرحُ كاسبـاً ... وغداً سأنبذُ بالعراءِ

وأضعتُ صادقةَ الرجاءِ فأينَ كاذبةُ الرجاءِ
من ذا ألومُ سوى بني وطني على هـــذا البـلاء !

. . .

للحقّ (سطرٌ) في صحافتنا وللتضليلِ (نهرُ) !
قلّبْ صحائفَهـا يُطـــلُّ عليك بهتـــان وهُجْرُ
للخاملين نبـــاهةٌ فيهـا وللأغمارِ ذِكرُ

هذا يُقال له الزعيمُ... كما يُقال لذاك حرُّ !
وهناك سمسارُ البـلادِ فإنّـه الشهمُ الأغرُّ !

فالمدحُ مثلُ القدحِ تضمنُهُ لهم خضرٌ وحمرُ[1] !
تلك الصحافــةُ (كيمياءُ) لها بخلقِ اللهِ سرُّ !

تدع الكرامةَ وهيهزلٌ والمروءةَ وهي سُخْرُ
أينَ الصحافيُّ الصريحُ تراه يُعلنُ ما يُسِرُّ

صلـبٌ فلا قُربى تميـل به ، ولا مـــالٌ يغَرُّ !

. . .

منذُ احتلال الغاصبين ونحنُ نبحثُ فيالسياسهْ
شأنُ الضميرِ مـــع السياسةِ كالرقيقِ مـع النخاسهْ

---

١ – اشارة الى ورق النقد الفلسطيني .

مرّت علينا ستّ عشرةَ ، كُنْ مجلبــةَ التعاسه
فــإلى متى يا ابنَ البلادِ وأنتَ تُؤخذُ بالحماسه ؟
والى متى (زعماءُ) قومِكَ يخلبونكَ بالكياسه ؟
ولـكمْ أحسْطنا خائنــاً منهم بهالاتِ القداسه !
ولـكمْ أضاعَ حقوقنا الرجلُ الموكّـلُ بالحراسه !!
واللهِ ليس هناك إلاّ كلُّ قنّاصِ الرئاسه
تأتيـه من بَيعِ البلادِ ومـا اليـه من الخساسه
وإذا اتقّاكَ فـ (بالجرائد) والنجـاسةُ للنجاسه (١)

كان ابراهيم ، يرحمه الله ، عارفاً سلفاً بهول النكبة الفادحة التي أصابت عربَ فلسطين في شهر أيار عام ١٩٤٨ فبارحوا الوطن المغصوب مكرهين ، وضربوا في آفاقٍ نائية من الأرض وهـاموا على وجوههم في اقطـار العالم (كاليهودي التـائه !)

حتى المجاهل النائية بلغها اللاجئون الفلسطينيون ، ولقد رأيتهم أفواجـاً ... أفواجاً ... في ايطاليا واسبانيا والبرازيل والارجنتين والشيلي !

أقول : كان ابراهيم مدركاً هول المصير المحتوم بنظره الثاقب البعيد ، ورأيه الصائب السديد ، إذا ظلّ الحالُ على ذلك المنوال ، فأنشأ يقول في عـام ١٩٣٥ ، أي قبل وقوع النكبة بثلاثة عشر عاماً :

أمامَكَ أيهـا العربيُّ يومٌ تشيبُ لهولهِ سودُ النواصي

---

١ - كان ذلك في تسليط الصحف على كرامات الناس للنيل منها .

وأنتَ ، كما عهدتُك ، لا تبالي بغيرِ مظاهرِ العبثِ الرّخاصِ
مصيرُكَ باتَ يلمسُهُ الأداني وسارَ حديثُهُ بين الأقاصي
فلا رَحْبُ القصورِ غداً بباقٍ لساكنها ولا ضيقُ الخِصاصِ [1]

. . .

لنا خصمان [2] ذو حولٍ وطولٍ وآخرُ ذو احتيالٍ واقتناصِ
تواصوْا بينهم فأتى وبالاً وإذلالاً لنا ذاك التواصي
مناهجُ للابادةِ واضحاتٌ وبالحُسنى تُنفَّذُ والرصاصِ !!

واستبطأ ابراهيم اصطبار الانكليز على تهويد فلسطين وتسليمها لقمة سائغة لشذاذ الآفاق ، عملاً بوعد (بلفور) نصاً وروحاً .. ورأى أنّ الطريق قد طال .. وان الوعد قد استطال .. فراح يخاطبُ المستبدّ الغاصبَ بقوله :

قد شهدنا لعدلكم بـ (العدالهْ) وختمنا لجندكم بالبسالهْ !!
وعرفنا بكم صديقاً وفيّاً كيف ننسى انتدابَهُ واحتلالَهْ ؟!
وخجلنا من لطفكم يومَ قلتم : (وعدُ بلفورَ) نافذٌ لا محاله !!
كلُّ (أفضالكم) على الرأسِ والعينِ ، وليست في حاجةٍ لدلالَهْ !!
ولئن ساءَ حالنا فكفانا أنكم عندنا بأحسنِ حالَهْ !!
غيرَ ان الطريقَ طالت علينا وعليكم ... فما لنا والإطالهْ ؟!

---

١ – تحقق ذلك (الوعد) ويا للعار !

٢ – الخصمان هما : الحكومة البريطانية الطاغية ، والصهيونية المجرمة الباغية .

أجلاءٌ عن البلاد تريدون فنجلو ، أم مَحْقَنا والإزاله[1] ؟ !

في دار الاذاعة : في أعقاب عام ١٩٣٥ اخذت السلطات البريطانية في فلسطين تُعدُّ العدّة لإنشاء محطة اذاعية مركزها القدس ، وفي شهر آذار من عام ١٩٣٦ وقع الاختيارُ على ابراهيم ليكون مديراً للبرامج العربيـة في تلك الدار ، فاحتضن شاعرنا هذا القسم وتعهده بعنايته واتجهَ به اتجاهاً عربياً ، وأبدى في سبيل إعداد البرامج العربية المنوّعة نشاطاً عظيماً ، وتلاحظ مـدى الخدمات الطيبة التي أدّاها ابراهيم في الحقل الاذاعيّ في رسالة مؤرخـة في ٧ آذار ١٩٣٧ بعث بها ابراهيم الى صديقه الدكتور عمر فروخ وفيها يقول :

« ... لقد أصبح[2] دأبي أن أجعل هذا البرنامج تحفةً من التحفِ ، بحيث أبذُّ به برنامج مصر ، وقد توفقت في ذلك الى حدٍّ بعيد ، وقد جاءَني الثنـاء العاطر على البرنامج من مصر نفسها ومن العراق وسوريا والهند والرياض ، فتأمل كم يدعو ذلك الى النشاط ... وكم يتّسعُ العذرُ معه للتصيّد ! » .

لكنّ حُسَّادَ ابراهيم من عرب ويهود أخذوا يشيرون اليه بسبَّاباتهم ... ويستعدون عليه البريطاني ويحرّضونه على إبعاده عن البرامج العربيـة التي وجّهها توجيهاً قومياً صحيحـــاً ، فاشتدت حملة الصحف اليهودية عليه وسَعَتْ الوكالة اليهودية بما وسعتها الحيل ، الى المطالبة بعزله ، واتخذت تلك الحملةُ صوراً ثلاثاً :
الأولى : كانت الاوساط الصهيونية اليهودية ترى ان ابراهيم قد وجَّهَ البرامج العربية توجيهاً قومياً يُفيد العرب ويلحق باليهود أذىً بالغاً .

الثانية : لحظَ البريطانيون المشرفون على دار الاذاعة الفلسطينية ان التوجيه

---

١ – تحقق الجلاء عن الوطن المغصوب ، فتحققت بذلك نبوءة شاعرنا !

٢ – (شاعران معاصران) ص ٥٤ .

الذي اختطّه ابراهيم للبرامج العربية لا يحقق أهدافهم .

الثالثة : أبى ابراهيم ان يحلّ العاميّة محلّ الفُصحى ، بل عمد الى إملاء برامجه بأحاديث مفيدة عن سياسة الالهاء ، من شأنها ان تنبّه العرب من غفوتهم ، وتشدّ من عزماتهم !

مؤامرة على الفصحى : « ولعل من [1] أهم ما قام به هناك ، تصدّيه لفئة غير عربية ، كانت تسعى سعيها لتنشيط اللغة العامية ، وجعلها اللغة الغالبة على الأحاديث المذاعة ، وكانت حجتها في ذلك ان الاذاعة لا يمكنها ان تحققَ الغرض الذي هدفت اليه ، وهو نفع الطبقة المتوسطة ، اذا جرت على استعمال اللغة الفصحى ، ذلك لأن هذه الطبقة من أهل المدن والفلاحين ، لا تُحسن الفصحى – على حد تعبير أصحاب القول بتنشيط اللغة العامية – ولا تفهم اللغة العربية (القديمة !) التي جرى عليها المذياع !

وقف ابراهيم وقفة القرم العنيد أمام هذا الرأي ونقضه يومئذٍ بحجج دامغةٍ ، أظهر فيها ان المذياع لم يجرِ على اللغة العربية القديمة، وانه ليس في بلاد العرب من يعرف هذه اللغة بالمعنى الذي قصده أصحاب القول باللغة العامية ، غير افراد متخصصين ، وهي عندنا لغة الجاهلية التي قضى عليها القرآن الكريم بأسلوبه الجديد المبتدع ، وان عندنا اليوم لغة عربية صحيحة يصطنعها المؤلفون ومحررو الجرائد ، ويفهمها المتعلم والأميّ على السواء ، وان الفلاحين ، وجلّهم أميّون ، لتُقرأ عليهم الجريدة فيناقشون القارىء في افتتاحيتها ، ولا يعقل أن يناقش المرء في شيء لم يفهمه !

هذا وان العرب ، مسلمين ومسيحيين ، يدينون بالقومية ، وهذا مشروع غايته القضاء على اللغة العربية ، وهي عندنا كل ما بقي من ذلك التراث الطويل

---

١ – (اخي ابراهيم) ص ٧٧ – ٧٩ .

العريض الذي اجتمع لنا من الفتوحات والحضارات والعلوم والآداب والفنون ، فما من عاقل اليوم يعرف قدر نفسه ، ويعتزّ بعربيته ، يرضى عن العبث بهذا التراث الباقي والقضاء عليه بيده ! » .

دسّ يهوديّ : واجهَ ابراهيم خلال سنيّ عمله في دار الاذاعة الفلسطينية صعوبات جمّة لا يحصيها عَدّ ، ولَمَسَ مؤامرات لا يحصرها حساب... أضفْ الى هذا كله عمله في الاذاعة والثورةُ في فلسطين مستعرة اللظى مدة ثلاثة اعوام ، وفي العام الرابع اندلعتْ نار الحرب العالمية الثانية !

وخلال سنيّ الثورة هذه أوسع اليهود ابراهيم دساً ولؤماً وشغباً ، ووقفوا لبرامجه العربية وقفة المتربص ، وخرّجوا كافة احاديثه تخريجاً لحمته الدسُّ وسداهُ الوقيعة والأذى !

« ولم تكنْ (١) الجهات اليهودية لترى في الأحاديث الاخلاقية إلا تحريضاً تحت قناع ديني ، واما الدعاية فقد كانت في رأيها مبثوثة في الموضوعات التاريخية ، زد على ذلك قول تلك الجهات إن الاحاديث النبوية والأمثال المشهورة التي يقدمها المحدثون العرب فيها الخطر كل الخطر ، إذ يطلب فيها من الأمهات ان ينشئن اطفالهن بعضلات قوية ، ومنشأ الخطر ، على حد زعمها ، هو ان التنشئة القوية ، إنما يُقصد من ورائها المقدرة في المستقبل على المقاومة !

وكانت جُلُّ احاديث القسم العربي في الاذاعة ، توضع في الميزان فيناقَش ابراهيم فيها ، ويحاسب عليها ، ولكنه كان يقف امام ذلك كله مرفوع الهامة ، موفور الكرامة !

---

١ - (اخي ابراهيم) ص ٨٠ - ٨١ .

وانتهت الثورة وقامت الحرب العالمية الثانية ، فكانت الرقابة وما أدراك ما الرقابة ! » .

فمن قِبَل بعض المشرفين عليها يومئذ قامت الدعاية السيئة ، وقام التحريض ضد ابراهيم ، واستطاع هؤلاءِ ان ينالوا منه ما لم يستطعه اليهود ، فقد عرفوا من أين تؤكل الكتف ، وأشرعوا أنيابهم ، وبدأوا ينهشون ويتلمّظون ! » .

عقد اللؤلؤ : وذات ليلة بثّ ابراهيم في 'قرص الاذاعة الفلسطينية قصة لخّصها عن كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ ، وتدور حوادث هذه القصة حول (الأمانة) !

ولقد َفسّرَ اليهود الدسّاسون ان (الأمين) بطل القصة إنما هو رمزٌ للحاج أمين الحسيني ، وبما ان الاذاعة مؤسسة حكومية والحاج (أمين) مناوىء للحكومة ، فان عمل ابراهيم يعدّ خروجاً على العُرف (المسلكي) وذلك مما يؤخذ به ابراهيم !

ولتقفَ على قوادم قصة (عقد اللؤلؤ) وخوافيها ، تلك القصّةُ التي أذاعها ابراهيم بوحي من طيب نيّتهِ ، وسلامة طويّتهِ ، وحمّلها اليهودُ محملاً سيئاً خبيثاً وأقنعوا بذلك أسيادهم الانكليز ، من حقك علينا أن 'نلخّصها لك في أسطر وجيزه لترى أية ضحية كان ابراهيم على مذبح الثأر والنميمة والانتقام !

جزاء الأمانة : « حدّثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب بدمشق قال :

حكى لي رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد المعروف بقاضي المارستان انه قال :

بينما كنت أطوف بالبيت الحرام حاجاً وجدت عقداً من اللؤلؤ ، فشددته في طرف إحرامي وبعد ساعة سمعت انساناً ينشده في الحرم وقد جعل لمن يردّه عليه

عشرين ديناراً ، فسألته علامة ما ضاع فأخبرني فسلمّته العقد فقال لي : «تجيء إلى منزلي لأدفع اليك ما جعلته لك ! » فقلت: « مالي حاجة إلى ذلك وما دفعته اليك بسبب الجعالة وأنا من الله بخير كثير ! » فقال: « ولم تدفعه إلا لله عزّ وجلّ ؟» فقلت : « نعم ! » فقال : « استقبل بنا الكعبة وأمّن على دعائي ! » فاستقبلنا الكعبة فقال : « اللهم اغفر له وارزقني مكافأته ! » ثم ودّعني ومضى !

واتّفق ان سافرت من مكة إلى مصر بحراً ميمّماً المغرب فأسرت الرومُ المركب ووقعتُ في نصيب قسّ لم أزل أخدمه إلى أن دَنَتْ وفاته فأوصى باطلاقي ، وخرجت من بلد الروم إلى بعض بلاد المغرب فجلستُ أكتب على دكان خبّاز كان يعامل بعض ملاّكي تلك المدينة فجاءه غلام وقال: « سيدي يدعوك لتحاسبه » فاستصحبني معه ومضينا الى منزله وحاسبه ، ولما رأى معرفتي في الحساب وخطّي طلبني الملاّك من الخبّاز فغيّر ثيابي وسلّم إليّ جباية ملكه وكانت له نعمة ضخمة وأخلى لي بيتاً في جانب داره .!

وبعد مدة قال لي : « يا أبا بكر ما رأيك في التزويج ؟ » قلت : « يا سيدي أنا لا أطيق نفقة نفسي فكيف أطيق النفقة على زوجة ؟ » قال : « أنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع ما يلزمك ! » فقلت : « الأمر لك ! » فقال : « يا ولدي ان هذه الزوجة فيها عيوب شتى ! » ولم يترك شيئاً من العيب في الخلقة من رأسها إلى قدمها إلا وذكره لي وأنا أقول : « رضيت ! » فقال لي :«الزوجة ابنتي ! » واحضر جماعة وعقد العقد !

وبعد أيام قال لي : « تهيأ لدخول بيتك !» ثم أمر لي بكسوة فاخرة ودخلت الى دار فيها التجميل والآلات واخرجت العروس تحت النمط[١] فقمت لتلقّيها ، فلما كشفت النمط رأيت صورة ما رأيت في الدنيا أجمل منها ، فهربت من الدار

١ — ثوب من صوف يطرح على الهودج وجمعه : أنماط ونياط .

خارجاً فلقيني الشيخ وسألني عن سبب هربي فقلت: « ان الزوجة ما هي التي ذكرت لي فيها من العيوب ما ذكرت ! » فتبسّم وقال : « يا ولدي هي زوجتك وليس لي ولد سواها وإنما ذكرت لك ما ذكرت لئلا تستقلّ ما تراه ! » فعدت وجليَّتْ عليّ !

وفي الغد جعلت أتأمل ما عليها من الحلي والجوهر الفاخر فرأيت من جملة ما عليها العقد الذي وجدته في مكة ، فعجبت من ذلك واستغرقني الفكر فيه. فلما خرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال: « جدع الحال أنف الغيرة! » فشكرته على ما فعله معي ، ثم استولى عليّ الفكر في العقد ووصوله اليه فقال لي: « فيمَ تُفكّر ؟ » فقلت : « في العقد الفلاني ، فاني حججتُ في السنة الفلانية فوجدته في الحرم أو عقداً يشبهه ! » فصاح وقال : « أأنتَ الذي رددتَ عليّ العقد ؟ » قلت : « أنا ذاك ! » فقال : « ابشر ان الله قد غفر لي ولك فإني دعوت الله سبحانه وتعالى في تلك الساعة ان يغفر لي ولك وأن يرزقني مكافأتك وقد سلمت اليك مالي وولدي وأظن أجلي قد قرب ! ثم أوصى لي ومات بعد مدة قريبة ! »

وفاء مزعوم : وفي أمسية الثلاثين من ايلول عام ١٩٣٧ القى ابراهيم حديثاً طريفاً من الاذاعة الفلسطينية بعنوان (حقيقة وفاء السموأل) وفيه فسَّر اسطورة ذلك الوفاء المزعوم الذي تناقلتْ انباءَه الألسن والاقلام ، تفسيراً جديداً أحدث ضجة عارمة في الاوساط اليهودية حين قال شاعرنا : إن السموأل افتدى الادرع بابنه حرصاً منه على المال الذي آثره على وحيده ! أوَ ليسَ السموأل يهودياً ! أوَ ليسَ حب المال صفة خاصة تميَّز بها اليهود منذ القدم ؟ !

انّ حبّ الدينار فيكم قديم ! (يوسفٌ) باعه أبوكم (يهوذا)

وهنا قامت الاوساط اليهودية وقعدت لهذه الصفعة ...! فشكا علماءُ اليهود

وصحافتهم ابراهيم الى المسؤولين البريطانيين وأوغروا صدورهم عليه ، فكانت هذه أولَ طعنةٍ سُدّدت الى صدر شاعرنا وأفضت في النهاية الى فصله من عمله ، ودونك نصّ الحديث الذي أذاعه ابراهيم بجرأة الاديب المحقق ، الواثق من نفسه ، فأهاج عقارب الصهيونية وأخرجها من أوكارها فراحت تحاول لسع الشاعر العربي المؤمن بربه وأمته ووطنه !

حقيقة وفاء السموأل : « في حديثي عن السموأل أيها السيدات والسادة خروج على المعروف المتداول من سيرته ، في حديثي هذا المساء جرأة على شخصية ممتازة تتمتع في آدابنا بمكانة سامية ومقام رفيع : « يعزّ على من رامه ويطول ! » .

فاسم السموأل مقرون بفضيلة الوفاء ، تاج الفضائل الانسانية ، وقصته المرويّة عن وفائه لامرىء القيس ، خوّلته الحق في ضرب المثل باسمه فقالوا : « أوفى من السموأل ! » .

ولكن ما هي حقيقة السموأل ؟ ما هي حقيقة هذا الوفاء ؟ الى أيّ حد نستطيع ان نسير مع الرواة الذين عنوا بالسموأل ؟

هذا ما أردت ان اتحدث اليكم به فأفضي برأيي فيه افضاءً ، لا حاملاً أحداً منكم على الأخذ به ، ولا داعياً فيه احداً الى مناقشة ولا جدال !

خلاصة ما نعرف عن امرىء القيس أنه تولىّ أمر الانتقام لأبيه حجر من قاتليه ، من بني أسد ، فارتحلَ حتى نزل بكراً وتغلب يستنصرهم فنصروه ، وأصاب من بني أسد ثأره فقتل جماعة منهم !

إلا أنه يشتطّ في الانتقام فيتخلّى عنه أنصاره ، ويلجأ الى غيرهم فلا يجد عندهم بغيته حتى ينزل برجل من بني فزارة فيدلّه هذا على السموأل صاحب

(حصن تيماء) ولا يطول المقـــام بامرىء القيس حتى يبرح الحصن بكتاب من السموأل إلى الحارث الغسّاني بالشام فيوصله هذا الى قيصر بالقسطنطينية !

وتذهب الرواية إلى أن امرأ القيس استودع عند السموأل دروعاً ، قبل سفره إلى قيصر فيأتي الحارث بن ظالم فيطالب بها فيأبى السموأل ، ويتحصّن منه في حصنه ،فيظفر الحارث بابن السموأل الذي كان راجعاًمن الصيد، فيخيّره بين تسليم الدروع وبين قتل ولده فيأبى السموأل ، ويضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فيقطعه قطعتين !

هذه هي القصة المشهورة ، فلنحقق الآن في قضية حجر والد امرىء القيس مع بني أسد فإن فيها ما يدعو إلى النظر والاهتمام !

لم يكتفِ قاتلو حجر بقتله ، بل امتدت أيديهم إلى ماله فنهبوه ، وأخـــذوا خيله ومتاعه وحملوا جواريه ، ولم يستخلص من ذلك سوى عدد من الدروع ، بينها خمس ذات قيمة وسنرى لهذه الدروع شأناً مع السموأل !

ولما علم بنو حجر بقتل أبيهم، قعدوا عن الأخذوا بثأره لاسباب أراها وجيهة، منها ان القيام بهذه المهمة الدامية قد يكون سهلًا لو بقي لهم مال أبيهم وعدّته ، كما ان الاستنجاد بالقبائل قد يكون هيّناً ميسوراً لو لم تكن القضية فردية ، تؤدي إلى شرّ عظيم قد يعمّ الجزيرة ، أما قيام امرىء القس بأعبائها دون سائر أخوته فإنها غمرة من غمرات الشباب ، ونزوة من طيش الصبا ونزق الفتوة ، ولما قدم عليه وجوه العرب وامراؤهم يعرضون الديّة ، ويرجون تسوية القضية بالتي هي أحسن، تفادياً للفتنةِ ، وحقناً للدماء ، ردّهم امرؤ القيس ردّاً غير جميل بقوله : « رويداً ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، أتقيمون أم تنصرفون ؟» قالوا : « بـل ننصرف بأسوأ الاختيـار وأبلى الاجترار لمكروه وأذية ، وحرب وبليّة ! »

ووجد امرؤ القيس في قبيلة بكر وتغلب من ينصره ، فهاجم بهم بني أسد ، وقتل منهم جماعة ، وداهمهم كرة اخرى فوضع السيف في جيرانهم من بني كنانة !

ورأى حلفاؤه انه قد بلغ أربه من الثأر لأبيه ، ونصحوه بالوقوف عند هذا الحد فأبى إلا الاستمرار ، واشتط في الانتقام فتخلوا عنه وفارقوه، ولجأ بعدهم الى قبائل عديدة ، فلم يجد له من بعدهم نصيراً ، وظل يستجير برجال من ذوي النفوذ بينهم ابن عمته عمرو بن المنذر ومرشد الخير بن ذي جدن وقرمل بن الحميم والحارث بن شهاب وسعد بن الضباب الإيادي والمعلى بن تيم الطائي وغيرهم من وجوه العرب وكرامهم ، فلا يجيره أحد ، فهو غويٌّ مستهتر مشؤوم ، ويعمد الى المال يستأجر به الرجال ومن أين له المال؟ فقد عرفناه متلافاً مُبذراً ، كما رأينا مال أبيه يفوز به قاتلوه ، فلا يبقون منه باقية ، وهكذا تضيق الدنيا في وجهه الى حدٍّ يستجير معه برجل من الخلعاء الفُتّاك يقال له عامر بن جوين ، وقد تبرأ قومه من جرائره !

هذه هي حالة امرىء القيس المادية والمعنوية التي كان عليها قبل ان يصل الى السموأل صاحب (حصن تيماء) !

لكن أنا وأنت أيها المستمع الكريم على حذر من راوية يقال له دارم ابن عقّال ، انفرد برواية ما مرّ على امرىء القيس من اعراض القبائل عنه ، وانصراف كرام العرب عن قضيته ، ويمضي في روايته تلك بما لا يخفى على المحقق من التهويش والتهريج حتى يقف بامرىء القيس ويلقي به على قدميْ السموأل ، شاعراً مادحاً مستجدياً بقصيدة أولها :

طرقتك هندٌ بعد طولِ تجنّبِ   وَهْناً ولم تكُ قبل ذلك تطرقِ !

ويعلق صاحب (الأغاني) على هذه القصيدة بما نصّه بالحرف :

«... وهي قصيدة طويلة وأظنها منحولة لأنها لا تشا كل كلام امرىء القيس، والتوليد فيها بيّن ، وما دوّنها في ديوانه أحدٌ من الثقات، وأحسبها مما صنعه دارم لأنه من ولد السموأل ..! »

انتهى كلام صاحب (الأغاني) ... دارمُ بن عقّـال إذن من ولد السموأل فينبغي لنـا ان نكون على حذر من تعرضه ، ودارم بن عقّال من الدعـاة المهرجين الذين لا يكثر عليهم ان يشوّهوا وجه الحقيقة ويطمسوا معالمها !

أما السموأل أو (صموئيل) اذا شئت وأخوه سعيه أو (شعيا) ، فكلاهما معروف الأصل ، يتصل نسبه بهارون بن عمران عليه السلام !

وكان السموأل عظيم الثروة متشعب التجارة واسع النفوذ ، وكان (حصن تيماء) سوقاً لتجارته ، فاذا اتصل به امرؤ القيس ولجأ اليه على غير معرفة سابقة ، وهو على ما عرفناه من الغواية والتبذير والشطط ، وعلى ما رأيناه من الحاجة الى المال والعدة لمناهضة أعدائه ، بعد هذا كله يصعب علينا جداً ان نأخذ برواية دارم على وجهها فنصدّق أن يمدّ السموأل التاجر المرابي يده عن طيب نيته وكرم عنصره لمساعدة امرىء القيس، وإنما الأقرب الى العقل والصدق أن يقدم السموأل لامرىء القيس ديناً بضمانٍ يؤمنه عليه ، فيكون الضمان تلك الدروع التي ورثها أمرؤ القيس عن أبيه يضعها عند السموأل رهائن على المال !

ويرتحل امرؤ القيس الى الشام ومنها الى القسطنطينية في تنفيذ مشروعه الحربي الضخم ، الذي يوشك ان يصبح بفضل مـال السموأل وهوس امرىء القيس مشكلة دولية بين الروم والعرب ، بعد أن كانت فردية محلية !

في هذه الفترة يقوم الحـارث بن ظالم مطالباً بالدروع ، فيأبى السموأل ان يسلم رهـائن بيده على مال له ، ويلحف الحارث بالطلب ، فيصرُّ السموأل على الاحتفاظ برهائنه ، كيف لا وهي مقابل مـاله ، وبضياعها ضياعه ، ويتحصن في

أحصنه ويغلق عليه بوابه ، وفي خلال ذلك يكون احد أبناء السموأل راجعاً من الصيد ، فيأخذه الحارث اسيراً وينادي أباه فيطل عليه من فوق الحصن فيخيّره بين قتل ولده تحت عينيه ، وبين تسليم الدروع اليه ، فيتردد الوالد وفي وسعه ان يبذل ثمن الدرع الواحدة اضعافاً مضاعفة ، فيحتفظ بولده ويفي لأمرىء القيس بأمانته !

لو كانت القضية قضية وفاءٍ لبانت حقيقتها ، ولكن هيهات لقد كانت قضية مال بل هي غريزة حب المال تغلّبت على حبِّ ولده فضحى به على مذبح حرصه وطمعه !

هذه هي في رأيي ، حقيقة وفاء السموأل ، لا كما قدمها لنا دارم بن عقّال ولا يبعد أن يكون دارم هذا ، وقد عرفنا تهريجه وجرأته على الانتحال ، لا يبعد ان يكون ناظم قصيدة السموأل الشهيرة :

إذا المرءُ لم يدنسْ من اللؤمِ عرضُهُ　　فكلُ رداءٍ يرتديه جميلُ !

فالقصيدة من اولها الى آخرها ، ليس فيها ما يدلّ على جاهليتها لا لغةً ولا تفكيراً ، وانظروا الى الصناعة في قوله :

تسيلُ على حدّ الظباة نفوسنا　　وليست على غير الظُباة تسيلُ
يقرّبُ حبُ الموت آجالنا لنا　　وتكرهه آجالُهم فتطولُ !

فما أغربَ ان يكون هذا القول من السموأل ..! وما أبعد ان يكون للجاهليين المعاصرين لامرىء القيس مثل هذا الاسلوب ! » .

• • •

« لقد (١) أراد طوقان في بحثه هذا أن يهدم برأيه الجديد سيرة الوفاء

١ — « ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب » ص ٣٧ .

السموألي المزعوم ، الذي اصطلح الناسُ منذ القديم على تقديسه ، كما جاء في تاريخ الأدب العربي ، وروايات الرواة من الجاهلية الى يوم طوقان ، بل كان يُقال : « لا تجد أكثر وفاءً من السموأل ! » فذهب هذا الوفاء مثلاً يضرب كلما تحدث الناس عنه وعزّ في الرجال ! » .

لقد ردّ طوقان اسم (السموأل) الى اصله الاول (صموئيل) واسم اخيه (سعيه) الى (شعيا) المعروف بالعبرية ، وتحدث في بحثه عن تجارتهما الواسعة ونفوذ الاول وخطره ، وان سوقها التجارية كانت تقوم حول الحصن بـ (تيماء) وأبى الاديب طوقان ان يسمي إيداع الدروع وديعةً ، بل عدّ إبقاءها لديه رهينةً وضماناً لمال أخذه امرؤ القيس منه ، من (السموأل) المرابي ...! وطالما كانت الدروع أثمن شيء عند محارب الجاهلية وعند العرب !

ولم يكتفِ طوقان بهذا الإنكار للحادثة المشهورة ، وإنما أنكر القصيدة اللامية التي قال فيها (السموأل) :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ !

وردّها الى الشعر المنحول ، على طريقة الدكتور طه حسين الذي سبق الى إنكار في الشعر الجاهلي ، ومهما يكن من أمر هذا القول فان ابراهيم طوقان ، قد أبى في موضوع الآداب العربية ناحية في الارتياب والتساؤل !

وهاجت الصحف العبرية لهذه (القنبلة) وحملت جريدة (دافار) في صدر عددها الصادر بتاريخ ٢٩-٦-٩٣٦ على ابراهيم حملة عنيفة قاسية ، طالبت فيها المسؤولين محاسبته أولاً واقصاءَه ثانياً من منصبه ، لأنه سخَّر المذياع لإثارة الفتن وجعل منه أداة خصام لا أداة سلام ، وختمت حملتها العنيفة بالعبارة التالية :

« فهل يدعى المدير العربي لمناقشته الحساب ؟ أم يظل سائراً في أعماله بأمان

حتى بعد هذا البرهان القاطع الذي قدمه ههنا ثقة من أهل الخبرة في العلوم العربية وثقافتها ؟ ! »

ابراهيم يفنِّد : ولكن شاعرنا لم يبالِ بتلك الحملة المفتعلة التي أثارت عجاجها الصحف العبرية بل ظلّ صامداً كالطود الشامخ عند رأيه في الكشف عن حقيقة ذلك (الوفاء) اليهودي المزعوم وردّ بقوله :

« السموأل واحد من شخصيات عديدة في الأدب العربي ، كانت ولا تزال موضع أخذ وردّ في الاوساط الادبية ، لا بل ان هذا الدور من تاريخ الادب له من يُنكره انكاراً باتاً ويعدُّه في الاساطير التي لا تستند الى اساس ، والسبب في ذلك كون تاريخ الادب في ادواره الاولى ، والتي نحن بصددها مأخوذاً من ألسنة الرواة يتناقلونه بزيادة ونقصان ، فيكون تحت تأثير عوامل شتى منها : القوة على الحفظ وتفاوت درجاتها ، ومنها عصبية القبائل ، ومنها رواج سوق الرواية والتكسب بها عند الخلفاء والامراء مما يتطلب دوام المادة وتجديدها ، فشجَّع كثيراً من الرواة على الاختراع والانتحال ، في القصص والشعر والأخبار ، وعندما جاء دور التدوين تجمّع في كتبنا ركام من هذا التراث ، نجد في تضاربه واختلاف مصادره ، باعثاً ملحا على الاستقصاء العلمي ، وداعياً الى النشاط في الكشف عن صحيحه وزائفه ، والتحقيق في صدقه وكذبه !

وعلاقة السموأل بتاريخ الادب العربي وأعظم شاعر في الجاهلية ، تخول كل متخصص بأدبنا وتاريخه ، ان يتحدث عنه كما يتحدث عن أي شاعر أو اديب ، بقطع النظر عن قوميته ودينه ، فاختياري السموأل ادبي تاريخي ، وبحثي فيه علمي سبق لي مثله في عدة ابحاث ابتدأت بها في عهد دراستي في جامعة بيروت ، وكانت خطتي ان اتناول حياة الشاعر ، وما يتعلق بها من روايات مختلقة وأنظرَ في آثاره ، فأخرج له سيرة منظمة مبنية على نقد علمي خالص ، متتبعاً أساليب البحث الحديثة ، وأذكر من هؤلاء الشعراء العباس بن الاحنف ، ديك الجن

الحمصي، وهذه نشرت في حينها في مصر وبيروت والشام، وتناقلت بعضها الجرائد، ومنهم سبط بن التعاويذي ومحمد بن مناذر والسري الرفاء وقد أذعت طرفاً من حياتهم ونماذج من شعرهم بتاريخ ٦-٤ و ٢٩-٤ و ٩-٦ والسموأل من هؤلاء والبحث في حياته لا يخرج في طريقته عن الابحاث في الشعراء المذكورين!

لقد عني بالسموأل نقاد ثقات، أذكر منهم الأب لويس شيخو اليسوعي وروحي بك الخالدي المتوفى سنة ١٩١٤، وكان البحث في مجلات محترمة كالمشرق والمنادي، وكتب معروفة منها (شعراء النصرانية) ودار البحث حول يهودية السموأل، فأثبتها الخالدي وأنكرها شيخو مقرراً نصرانيته، كما ان التحقيق أضعف شأن الرواية المنقولة عن علاقة امرىء القيس بالسموأل، ووقف متردداً في قبولها!

ان (دافار) لم تكن منصفة بأخذها (نتيجة البحث) دون البراهين التي أدّت الى هذه النتيجة، ولو أنها تجرّدت عن الغرض لرأت انني تناولتُ امرأ القيس أعظم شعرائنا وأخلصهم عروبة، بنقد صارم وقسوة لا رأفة فيها، فبيَّنت مواطن الضعف العديدة في اخلاقه، وذهبت الى انه تآمر على أمته في قصده ملك الروم متهماً إياهُ بالخيانة العظمى!

أما الثقةُ الذي رجعت اليه في التعليق على قصة السموأل فهو (أبو الفرج الاصبهاني)، صاحب كتاب (الأغاني) وقد ورد ذكره في الحديث المذاع!»

الشرّ ينتصر : واخيراً نجح أعوان الاستعمار وزبانيته في إقالة ابراهيم من منصبه، وراحت الصحف اليهودية تكيل المدح والاطراءَ للمسؤولين البريطانيين الذين استجابوا لصرخاتها، وجنّبوا الاذاعة الفلسطينية قرماً عنيداً، ما زاده الدسّ إلاّ إباءً، والوقيعة إلاّ عناداً وصلفاً، فرحل ابراهيم الى بغداد بعد أن أدّى ما عليه لوطنه وابناء جلدته من وجائب الحذر واليقظة، لكنّ أيامَهُ في بغداد لم تطلْ إذ عاوده الداء فعاد الى فلسطين ليلفظ أنفاسه بين يديْ (أم) رؤوم

ودّت لو تفديه بالمهجة الغالية ، و (قرينة) وفيّة تمنّت لو ينالهـــا الردى ويُبقي (أبا جعفر) حيّاً و (شقيقة) شاعرة كانت تدعو الله ان ينسىء في أجل شقيق ليظلّ بلبلاً يشدو في (عبقر) !

ومن (المذياع) الذي كان يحمل للعالم العربي صوت ابراهيم وأحاديثه وطرائفه وتوجيهاته الوطنية عرف عشاق ابراهيم ومحبوه نبأ مصرع البلبل الغرّيد ! إذ بارح هذا العالم الجاني في الثاني من أيار عام ١٩٤١ فصعق العشاق ، واستحال سامرهم الى مأتم وعويل !

أشواق الحجاز : وأي عربي معتزّ بأمته ، فخور بفتوحهـــا ، لا يهزّه الشوق وينزع بـــه الحنين الى البلاد المقدسة ، تلك البلاد التي بزغتْ منها شمس الرسالة السمحاء ، وحملتها كفّ النبي العربي الكريم ، صلوات الله عليه ، إلى العالم وأتمّها أصحابه الأخيار الأبرار بعزم وتصميم ، ففتحوا نصف العالم بأقل من ربـع قرن ، وجمعوا من شتات البـدو دولة ، وبعثوا من جوف الصحراء حضارة ، ونفخوا في قلوب العرب من روح الله ، فطمحوا الى ملك كسرى وهم جيـــاع ، وسموا الى عرش قيصر وهم عُراة ، وصمدوا الى حكم العالم وهم سُذّج ، وظهروا للعيان أمةً واحدة تهدف الى هدف واحد ، وتعبد رباً واحداً !

أقول : من منّا نحن حملة الفكرة العربيـــة ، لا يستروح شذا النبي العربي الكريم ، ويقتفي خطى خلفـــائه الاطهار ، ويمرغ جبينه وخديه في الثرى الاقدس ، ذلك الثرى الذي درج عليه سيد قريش ، وارتفعت في شعـــابه راية الايمان ، ونزل على نبيّه العظيم ، ذلك الكتاب الكريم ، الذي فَصَلَ بين الخير والشر ، وساوى بين البشر في احسابهم وانسابهم ، فجلس فقيرهم الى جانب غنيّهم يؤدي فروض العبادة ، فزالت بذلك الفوارق والألوان ، وعمرت القلوب بالحق والايمان !

لقد عبّر ابراهيم عن نفس كل عربي مُغالٍ بأمته ، متفانٍ في سبيل عزتهـا ورفعتها بنشيده :

بلادَ الحجازِ اليكِ هفا فؤادي وهامَ بحبِّ (النبيّ)
ويا حبذا زمزمٌ والصفا ويا طيبَ ذاكَ الثرى الطيّبِ

ذكرى الهادي، والامجادِ ملءُ الوادي، والأنجادَ
أثرُ الهممِ، منذ القِدمِ حولَ الحرمِ، أبداً بادِ

بلادَ الكرامِ شموسِ الهدى
عليك سلامي مدىً سرمدا

. . .

هنيئاً لمن حضر المشهدا وطافَ بكعبةِ ذاكَ الحرم
ومن قبّلَ الحجرَ الأسودا وظلّله الركنُ لمّا استلمْ

. . .

بروحي ربوعُ (النبيّ) الأمين وصحبُ (النبيّ) هُداةُ الملا
ومشرقُ نور الكتاب المبين عمادِ الحياة وركنِ العلا

ذكرى الهادي، والامجادِ ملءُ الوادي، والأنجادِ
أثرُ الهممِ، منذُ القِدَمِ حولَ الحرمِ، أبداً بادِ

بلادَ الكرامِ شموسِ الهدى
عليك سلامي مدىً سرمدا

كان شعر ابراهم الوطني لهباً مستعر اللظى و « نتاجاً[1] طبيعياً لحوادث ألمّت بفلسطين ،تناولت حياتها الوطنية والقومية ،فعبّر عنها شاعر موهوب ربطه بالارض منبت وثيق ، فقد نشأ مع نشأة هذه الحوادث الفظيعة ، ورافق شبابه ما رافقها من رواغ المستعمر واغتصاب الدخيل ، فكان في شعره الوطني ناقماً على السياسة التي فُرضت على البلاد باسم (الانتداب) ، وكانت أداةً لتلاعب السياسة والحكام ، وتمهيداً لتحقيق الحلم الصهيوني القديم ، وكانت حملته على الخونة ممن مكنوا العدو من الوصول الى مآربه ، فضمن هذا الشعور في طوقان انبعاث الروح القومية في شباب الجيل من وطنه ، وكأنه كان نذيراً لقومه ، مبكراً بما سيؤول اليه أمرهم بعد قليل من السنين !

لقد كانوا على شفا الهاوية فأنذرهم طوقان من التردّي ، وقد راح من الدنيا قبل أن يشهد مصرع فلسطين ، ويكاد يكون شعره السياسي سجلاً تاريخياً لنشأة النكبة حتى برزت ، وكشرت عن انيابها ، ولقد كان هذا الشاعر خبيراً بمواطن الداء الدفين في قومه ، وعارفاً بألاعيب الحكام وعبّاد المناصب والمال ، وكان الافراد الذين يمكن أن يحمّلهم تاريخ فلسطين تبعات النكبة يبرزون لعينيه واحداً واحداً ، ويشير هو بشعره اليهم وكأنه يمد إصبعه نحوهم !

كانت طوائف من شعر ابراهيم تشير بأصابعها الى بركان فلسطين قبل أن ينفجر ، بل كانت تحذر ، في إبان الثورة ، الخونة من أن يسيئوا اليها ، وقد عاين طوقان ثورة فلسطين وعايشها ، وكان شعره الوطني الذي سدده في الحوادث الحاسمة نصوصاً مكتوبة بالنار على القضية التي انتهت بالهزيمة والخيانة ! »

وعاش ابراهيم عمره في تذكّر وطنه وتنبيه شعبه الى ما يحاك له من تهويد وتنكيد ، وعصر آماله وأمانيه في كأس محبته وتقديسه البلدَ الذي درج على سهوله وبطاحه و (تـعَمْشقَ) هضابه وروابيه ، وظلّ يغنّي أمته من شعره ،

---

١ – « ابراهيم طوقان ، شاعر الوطن المغصوب » ص ٧٤–٧٦ .

علّيها تتنكّبُ طريق الخير والفلاح ، لكن قادة أمته أمعنوا في شحنائهم ، وأوردوا أمته موارد التهلكة :

وشرّقَ ابراهيمُ وغرّبَ ووطنه ملءُ عينيه وقلبه ولسانه، وظلّ يتذكّرُ ذلك الوطن المغصوب وينشده قوله :

هل أراكَ !

سالماً مُنعّماً وغانماً مكرّماً

هل أراكْ في عُلاكْ

تبلغُ السماكْ

موطني !

لكنّ ابراهيم مشى الى الموت قبل ان يستبيحَ العلج موطنه ، ولو تقذّتْ عيناه بالوطن مغصوباً ، وبالشعب مغلوباً ، وبالشرف معطوباً ، لهالهُ الأمر ، وافزعته الاحزان، ولأرسل نشيجه شعراً باكياً يخلّد هول النكبة ويدعو الى الثأر، بالصارم البتّار !

رحم الله (أبا جعفر) هذا الساحر الذي كانت مراحل عمره لحناً من الخلود ، كتب له ان يبقى وتراً سرمديّاً ، ونشيداً علويّاً ، حلو التقاسيم ، عذب التناغيم !

وجدانيات ابراهيم

تمهيد : في مجالسنا الخاصة كان ابراهيم يتحدث حديث الزهو والاعتزاز عن معاركه الدامية الحمراء ... وكأني به ، عامداً متعمداً ، قد تأسّى خُطى صريع الغواني (عمر ابن أبي ربيعة) « والذي [1] وقف شعره على المرأة فلم يقصد من المدح غير محاسنها فكان أتبع لها من ظلها ، لا تروقه الحياة إلا في مجلس حب ولهو ودعاب ، وكان له من شبابه وجماله وشاعريته ومحتده وثروته ما سهّلَ له سُبُلَ الملذات ، فلها وعبث ما شاء له أن يلهو ويعبث ، فما وقعت عينه على حسناء قرشية أو غير قرشية إلا وتتبع خطاها وشهّرها بأشعاره ! »

وبلغ الأمر بالفتى القرشيّ ان تعرّض يوماً لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان عندما حجّتْ ولم يذكرها باسمها ، خوفاً من (الحجّاج)وكان قد هدده وحذره من التشبيب بها :

شاقَ قلبي تذكُّرُ الأحبابِ — واعترتني نوائبُ الاطرابِ
يا خليليّ فاعلما أنّ قلبي — مستهامٌ بربةِ المحرابِ [2]
عُلّقَ القلبُ من قريشٍ ثقالاً [3] — ذات دلّ نقيةَ الأثوابِ
ربةٌ للنساءِ في بيت مَلك — جدُّها حلّ ذروة الاحسابِ
شفَّ عنها مرفق جَنَديٌّ [4] — فهي كالشمسِ من خلال السحابِ
فتراءَتْ حتى اذا جُنّ قلبي — سترتها ولائدٌ بالثيابِ
قُلنَ لما ضربنَ بالستر دوني : — ليس هذا لعاشق بثوابِ
فأجابتْ من القطين [5] فتاة — ذات دلّ رقيقة بعتابِ

---

١ – « ديوان عمر ابن ابي ربيعة » من منشورات مكتبة صادر : بيروت .
٢ – صدر البيت .
٣ – ثقيلة الردفين .
٤ – نسبة الى (جند) بلدة في اليمن .
٥ – الخدم والاتباع .

أُرسلي نحوه الوليدة [١] تسعى قد فعلنا رضا (أبي الخطّابِ)
لا تُطعْ في قطيعه ابنة بِشر ماجد الخيم [٢] طاهر الاثوابِ
فاتّقي ذا الجلال يا ام عمروٍ واحكمي في اسيركم بالصوابِ
افعلي بالاسير احدى ثلاث فافهميهنّ ثم رُدّي جوابي !
اقتليه قتلًا سريحاً [٣] مريحاً لا تكوني عليه سوط عذابِ
أو أقيدي [٤] فإنما النفس بالنفس قضاءٌ مفصّلًا بالكتابِ
أو صليه وصلًا يُقرّ عليه انشرّ الوصالِ وصلُ الكِذابِ

ولقي (عمر) يوماً عائشة بنت طلحة في مكة تسير على بغلة فاستوقفها وأنشدها هذه الأبيات فأنكرت عليه ما نُسبَ اليها ثم اطلقت عنان بغلتها وسارت ولم تزلْ تداريه خوفاً من أن يتعرّض لها حتى قضت حجّها وانصرفت الى المدينة :

يا ربة البغلةِ الشهباءِ هل لكُمُ أن ترحمي (عمراً) لا ترهقي حرَجا
قالت: بدائكَ مُتْ اوعشْ تعالجه فما نرى لـك فيما عندنا مرَجا
قد كنت حمّلتني غيظاً أعالجه فان تقدني [٥] فقد عنّيتني حججا
حتى لو اسطيعُ مما قد فعلتَ بنا أكلتُ لحمك من غيظي وما نضجا
فقلت : لا والذي حجّ الحجيجُ له ما محّ [٦] حبك من قلبي ولا نهجا
وما رأى القلب من شيء يسرُّ به مذ بان منزُلكم منا ولا ثلَجا [٧]
كالشمس صورتها غراءُ واضحةٌ تُغشي إذا برزت من حسنها السُرُجا [٨]
ضنّت بنائلنا عنّا فقد تركتْ من غير ذنب (أبا الخطّاب) مختلجا [٩]

---

١ – الجارية المولودة بين العرب .
٢ – الاصل .
٣ – لا مطل فيه (٤) – أي : اقتلي القاتل الذي قتلني (٥)– تعطي القود وهو القصاص أي: تجعلني اقتص منك (٦) – بلي (٧) – فرح (٨) – جمع سراج (٩) – قليل لحم الوجه.

وكان لهذا الشاعر المخزومي مواقف شعرية رائعة مع الثريّا بنت عبدالله بن الحارث وسكينة بنت الحسين ما زالت كتب الأدب تعج بها وتفاخر !

وإذا كانت صحراء الحجاز وأرياض الطائف مهد غزل (عمر) فان بيروت وبحرها والجامعة الاميركية فيها مهدُ غزل (ابراهيم) ومبعث تشبيبه ، ومن حقّ القارىء ان يتساءل : متى كان عهد (ابراهيم) بالغزل ؟

جواباً عن هذا التساؤل علينا أن نجيء بلمحة عن بيئة (ابراهيم) أولاً فمراحل دراسته ثانياً لنلمّ بأطراف الموضوع مشهداً مشهداً ومرحلة إثر مرحلة :

بيئة ابراهيم : « وُلد [1] في نابلس وقضى شطراً يسيراً من حياته في مدينة محافظة ، بل موغلة في المحافظة ، ولذلك كانت البيئة الاجتماعية فيها مغلقة تفرض على اهلها قيوداً لا تُفرض عادة على اهل البيئات المطلقة ، وأبرز خصائص البيئات المغلقة أن لأهلها فضولاً شديداً في تسقط بعضهم لاخبار بعض ولانتقاد بعضهم بعضاً على أيسر الامور وعلى أقل السلوك شذوذاً عن مألوف العادة ، ومثل هذه البيئات لا توافق اصحاب العبقريات ، ثم هي مغلقة ايضاً للحياة العادة المألوفة ، كان ابراهيم يقول لي : « ما أشد الحياة في نابلس ، ان الانسان لا يكاد يعمل في نابلس شيئاً حتى يعرف به كل انسان ! »

مراحلُ دراسته : أتمّ ابراهيم دراسته الابتدائية في المدرسة (الرشادية الغربية) في نابلس مدرج طفولته ، ولم يتفتح قلبه لهوى الغيد ... لصغر سنه ، وانتقل الى القدس حيث انتسب لـ (مدرسة المطران) الانكليزية ونال شهادتها الثانوية عام ٩٢٢ — ١٩٢٣ وفي هذا المعهد الداخلي عاش ابراهيم عيشة بعيدة عن

---

١ — (شاعران معاصران) ص ١٥ و١٦ .

الحب وتيـاراته واهتزازاته ، وكأني بطراوة عوده أولاً وبالجو المدرسي المحافظ ثانياً قد حالا دون تعرّفه على ظبيات القدس ومجاذبتهن حبل الهوى سوى ما كان يراه من جآذر المصليات في (كنيسة سان جورج) التابعة للمدرسة . وفي هـــذه الحقبة كان ابراهيم نقيض صديقه الشاعر (أبي سلمى [١]) الذى هام بغواني المدينة المقدسة ، فشدا بجبهن ، وشبب ببعضهن ، ومن هذا البعض (ل.ع) وهي حسناء لعوب فتنتْ (أبا سلمى) وصرفت المصلين عن التهجد والعبادة ، فسجدوا للقـد الميّاس ، وسكروا بطيب الأنفاس !

وفي هذه الغادة المغناج نظم (ابو سلمى) قصائد ذاع صيتها شرقـاً وغرباً ، ومن تلك المجنحات (لبيبةٌ في عيد الصعود [٢] !) ومنها قوله :

عيدَ الصعودِ ، ألا حُيّيتَ يا عيدُ ... لقد حـلا فيك تعذيب وتسهيدُ
ما هزّني العيدُ ، والأعيادُ مقبلةٌ ... لولا (لبيبةُ) ما عذّالُ ما العيدُ ؟!
سارتْ الى (جبل الزيتون) نافرةً ... فسرتُ تقتادني العينان والجيدُ !
تميسُ بـين العذارى الفاتنـاتِ كما ... يرومُ غانيةَ الآمـالِ مفؤودُ !
لما تراءَتْ على (الطورِ) ارتمى صعقاً ... من شامِ طلعتِها والقلبُ معمود !
قالتْ جموعُهم : هذا الملاكُ هوى ... من السماءِ فتقديسٌ وتمجيدُ !
ومالَ يشكو الصبابات (الصنوبر) كي ... تعود ولهى ... فيا أحبابه عودوا
واسترسلتْ نسمات السفح عابثة ... بشعرها ، شفّها في الشعر تجعيدُ
هذى النسيمات بالأنات مفعمة ... من خافقي... طال بالانـاتِ ترديدُ !
هلا عطفتِ عليه كيْ يفيضَ مُنىً ؟ ... أم هل فؤادكِ يا حسناءُ جلمودُ ؟!
إن أنسَ لا أنسى لما صددتِ قلىً ... وقطّعتْ مهجتي إذْ عز تضميدُ !

---

١ – هو الشاعر المعروف عبد الكريم الكرمي .
٢ – نشرت في العدد « ٥٤٢ » من جريدة « صوت الشعب » البيتلحمية المؤرخ في ٢٤ تموز ١٩٢٩ .

لولا خيالُك فيها يا (لبيبةُ) لا شكوى وعينيك حتى يهصرَ العودُ !

. . .

وحين غنّيتُ في روض الغرام تَشدَتْ حمائم الأيك ... أحيتها الأغاريدُ !
واستأسدَ الأهل والخِلان كلّهمُ وانّ اشجعهم في الجمع رعديدُ !
هُمْ هددونيَ لمّا أن شدوت بها وهل يروع أسيرَ الحبّ تهديدُ !؟
يا مُنيتي .. طرْفك الوسنانُ برّحَ بي وشرّدَ اللبَّ في الخدين توريدُ !
ان حرمت شفتاك الوصلَ لي فعدي ففي عذاب الهوى تحلو المواعيدُ !

أكدَ لي الذين عرفوا ابراهيم طوقان زميلًا لهم في (مدرسة المطران) بالقدس أنّ له قصائد وموشحات شتى .. نظم بعضها في هجو ثقلاء الدم من لداته وأساتذته وفي ذمّ أكل المدرسة ، ومن قوله في هذا الباب :

عدسٌ ، عدسٌ عدسٌ ، عدسُ وبه الأولاد لقد غطسوا
قاموا ، قعدوا ، فزّوا ، قمزوا لما أطعمناهم (قولاً [1])
أمّا (صرّوفُ) لا ، لا
سنتين دَرَسْنا فرنساوي (ديكتيه[2]) مع مسيو (صيداوي[3])
والان زهقنا (وي) (وي) (وي[4])
فهلمّ نشدّ الأرحالا
(تطلي) (تطلي) كل يوم في الصباح من قراصيا وسفرجل وتفاح

---

١ – هي الكلمة الانكليزية Goal وتعني (الهدف) .
٢ – كلمة فرنسية تعني (الاملاء) .
٣ – معلم الفرنسية عهد ذاك امين صيداوي .
٤ – كلمة فرنسية تعني « نعم» .

دْخلَكْ يا(مستر وينولدز[1]) بطني راح غير التطلي مساءً وصباح !

I wish you a happy rismas
Go home boys and eat (مُلبّسْ)

وانسوا (التطلي) مع (المدمّس)
(بونسوار)[2] (ميزامي[3]) ناموا حالاً

هل تنسون الليلة؟ لا ، لا ، لا !

. . .

لكن ابراهيم في الصف الرابع الثانوي نحا منحى ً جديداً في منظومه إذ َجنحَ الى الشعر الغزلي ، وذات يوم نظم قصيدة في مدح صغرى كريمتي السيد (فستر) رئيس كولونية الأميركان في القدس إذ شبّهها بالغزال النافر وشبّهَ شقيقتها الكبرى بالفيل الضخم الجثة . ونظم شاعرنا كذلك قصيدة غزلية اخرى بفتاة روسية كان يهواهـــا أحد أساتذة (مدرسة المطران) في القدس ، ومن دواعي الأسف الشديد ان زمـلاء ابراهيم في تلك المدرسة لا يذكرون شيئاً من غزله الباكر !

باكورة غزله : دخل ابراهيم بيروت في فتنة من سحرها، وبحرها، وتفتّحَ قلبه للطرف الناعس ، والقدّ المائس :

أولُ عهـــدي بفتـون الهوى (بيروتُ) أنعمْ بالهوى الأولِ

---

١ — مدير مدرسة المطران عهد ذاك .
٢ — كلمتان افرنسيتان تعنيان «مساء الخير »
٣ — كلمة فرنسية تعنى « اصدقائي » .

قيلَ : وهل يرُشد قلبٌ غوى ؟ والرشدُ غيٌ في الصبا المقبل!
مددتُ لما قلتُ : قلبي ارتوى يدي فردّته عن المنهل !
بيروتُ ، لو شئتِ دفعتِ النوى طوعاً، ولم أهجرك، فالويلُ لي

« ... وكانت[1] تنغّصه معاودة الداء الذي ألحّ عليه فهو يوماً هانيء النفس والبال ويوماً طريح الفراش ، وحيناً نشيط القريحة ، يقول الشعر غزلاً فيمن مسّه هواهنّ من اللبنانيات والفلسطينيات !

وكان أخوه أحمد ، الذي تخرّج قبله ، يشجعه على نظم الشعر على أن يجيده ويحسن الشعر والتجديد . ولما دخل مستشفى الجامعة الاميركية عام ٩٢٤ للمعالجة نظم قصيدته المشهورة (ملائكة الرحمة) وفيها وصف المؤاسية التي حدبت عليه في مرضه ، وربما تعلّقَ فؤاده بها وأبدع خياله في تصويرها ! »

ونشر هذه القصيدة في مجلة (المعرض) البيروتية لصاحبها المرحوم ميشال زكور فإذا بالعيون [2] تتطلع إلى هذا الشاعر الناشيء الطالب في الجامعة الأميركية ، وإذا بالصحف تتناقلها ، فنقلتها (مجلة سركيس) عن (المعرض) وعلّقت عليها بقولها : « ولعلّه أول من نظم شعراً عربياً في هذا الموضوع ! » وطلب القصيدة الشاعر العربي الكبير الدكتور جورج صوايا صاحب مجلة (التمدّن) التي كانت تصدر في (توكومان — الارجنتين) وكان مما علّقه عليها قوله :

« لو كان كل ما ينظمه شعراؤنا في هذا الباب من هذا النوع ، لكان الشعر العربي في درجة عالية من القوة والفتوّة »!

ودونك تلك القصيدة :

---

١ — « ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب » ص — ١٦

٢ — « اخي ابراهيم » ص — ١٧

بيضُ الحمائم حسبهنّهْ أني أُردّدُ سجعهنّهْ
رمزُ السلامة والوداعة منذُ بدءِ الخلق هُنّه !
في كلِّ روضٍ فوق دانيةِ القطوفِ لهنّ أنّهْ
ويملنَ والأغصانَ ما خطرَ النسيمُ بروضهنّهْ
فإذا صلاهنّ الهجيرُ هبَبْنَ نحو غديرهنّهْ
يهبطن بعد الحوْم مثل الوحي ، لا تدري بهنّهْ
فإذا وقعنَ على الغديرِ ترتّبتْ أسرابهنّهْ
صفّين طول الضفّتين تعرجاً بوقوفهنّهْ
كلٌّ تُقبّلُ رسمها في الماءِ ساعة شربهنّهْ
يطفئنَ حرّ جسومهنّ بغمسهنّ صدورهنّهْ
يقعُ الرشاشُ إذا انتفضنَ لآلئاً لرؤوسهنّهْ
ويطرن بعد الابتراد إلى الغصون مهودهنّهْ
تُنبيكَ أجنحةٌ تصفِق كيف كان سرورهنّهْ
ويُقرّ عينَك عبثهنّ ، إذا جثمنَ ، بريشهنّهْ
وتخالهنّ بلا رؤوسٍ حين يُقبلُ ليلهنّهْ
أخفينها تحت الجناحِ وغمنَ ملءَ جفونهنّهْ
كم هجنني ورويتُ عنهنّ الهديلَ ، فديتُهنّهْ

. . .

المحسنات إلى المريضِ غدونَ أشباهاً لهنّهْ

الروضُ كالمستشفيات ، دواؤها إيناسهنَّهْ
مـــا الكهربا بأجلّ من نظراتهنَّهْ
يشفي العليلَ عناؤهنّ وعطفهنّ ولطفهنَّهْ
مرُّ الدواءِ بفيكَ حلوٌ من عذوبة نُطقهنَّهْ
مهلاً ، فعندي فارق بين الحمام وبينهنَّهْ

فلربما انقطع الحمائمُ في الدجى عن شدوِهنَّهْ
أما جميلُ المحسنات ففي النهارِ وفي الدُجُنَّهْ

«وكان[1] ابراهيم اذا ملكَ من الصحة قوة تفتّحَ للشعر كزهرةٍ عاودها الماء بعد جفاف، يقدح خاطره شعور وطني فينظم أناشيد ، وتعنّ له خـاطرةُ غزل فيقول فيهـا شعراً على عادة الشبان المبكّرين في أدبهم ، تتماوج خواطرهم بـين اشتات الصور والمشاعر ! »

« ومن[2] عجب أن يظلّ قلب ابراهيم خالياً من المرأة ، حتى ذلك الحـين ، ولقد كان اصدقاؤه في الجامعة يعجبون لذلك ويقولون له على سبيل المزاح : « أنت شاعـر ولكن بلا شعور ! أين وحي المرأة في شعرك ؟! »

التعليم المختلط: «لا نستطيـع[3] ان نفهم غزل ابراهيم عامة إلاّ اذا عرفنا طرَفاً من صداقته وحبه لطالبة كانت تدرس في الجامعة الاميركية اسمها (م. ص) فلنرجع

---

١ – « ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب » ص – ١٨
٢ – « أخي ابراهيم » ص – ٢٤
٣ – « شاعران معاصران » ص – ٨٣ و ٨٤

إذن الى الايام التي قررت فيها الجامعة ان تفتح ابوابها للفتيات يتلقين العلوم والفنون مع الشبان جنباً الى جنب !

وهذا (التعليم المختلط) الذي نقص" خبره لا يتناول انشاء مدرسة التمريض عام ١٩٠٥ التي بدأت بتخريج طالباتها عام١٩٠٨ ،ولا التجارب الاولى بقبول الفتاة اليهوديه ساره ليفي في دائرة الصيدلة حيث تخرجت عام ١٩٢٥ ،وكذلك لا نعد الانسة هنرييت حكيم وكانت قد دخلت الجامعة عام ١٩٢٣ ثم تخرجت بكالوريوس علوم ١٩٢٧ ، ولا سنيّه حبوب التي بدأت دراسة الطّب في الجامعة الاميركية في بيروت ثم ذهبت الى الولايات المتحدة لمتابعة الطب هناك !

على ان (التعليم المختلط) ، بالمعنى المقصود هنا ، لم يبدأ قبل العام الدراسي ٩٢٤-٩٢٥ حينما سجلت سبع طالبات اسماءهن في الدائرة العلمية ، منهن مسلمة واحدة هي السيدة احسان أحمد القوصي المصرية ، وكانت تتلقى العلم هي وزوجها معاً .

هذا الاختلاط أطلق هزّة شديدة بين الفتيان ولكنّها هزّة كانت منتظرة على كل حال . ولم يكن ثمة بد للجامعة من ان تدفع ثمن التجربة مشاكل متعددة ، وأنا لا استطيع ان أزعم ان هذه المشاكل قد زالت الآن ... ولكن نظر الناس الى (المشكلة) قد تبدّل . ان وقوف الطالب والطالبة اليوم في بعض انحاء الجامعة الاميركية يدرسان أو يتسامران أصبح أمراً مألوفاً،ولكن الطالب في أيامنا كان يعرض نفسه للتأنيب أو الطرد أيضاً لو حاول ان يستوقف طالبة ليسألها عن عدد الصفحات التي فرض الاستاذ قراءتها !

على أن هذا التزّمت من قبل الجامعة الاميركية كان ظاهرياً ، فالجامعة يوم أقرّت (التعليم المختلط) كانت عالمة بالنتيجة التي سيصل اليها الطلاب والطالبات بعد حين – وقد كانت تقصد ان يصلوا اليها ولكنها كانت تقصد ان يتدرج اليها الجنسان تدرجاً ،حتى يتم الاختلاط على مقاعد الدرس وفي مياه البحر،وفي حلقات

الرقص على ما أصبحنا نرى منذ أمد !

غادة كفر كنه : ولكن الفتى الشاعر وقد بلغ الثانية والعشرين من عمره لم يبقَ بلا حُبّ فقد أراد (كوبيد) إله الحبّ ان يشكّ فؤاده بسهم من جعبة نباله، «وهنا [1] مسّ الحبّ قلبه ... ولكن هل كان مسّ ذلك الحبّ رقيقاً رحيماً ؟ كلا، بل كان مسّاً عنيفاً ملهباً أشعل روحه، وأيقظ حسه وأرهف نفسه ! »

قبل ربع قرن : «كان [2] التحفظ والاحتشام يسودان الحياة الاجتماعية قبل ربع قرن ،فعاش ابراهيم في الجامعة الاميركية حياة لم يكن يتساح له مثلها في نابلس حيث كان يضرب الحجاب في أيام صباه على وجه المرأة وتحاسب الفتاة على الابتسامة الصافية، والنظرة الخاطفة، وكانت الاسرة التي انبتت ابراهيم ذات حفاظ على التراث في العادات والسمت في التقاليد ،فوجد الفتى متنفساً له في جنائن الجامعة ومشارفها حيث تطلّ أفواف الزهر على أثباج البحر برأس بيروت، وتنبسط مراتع الفتيان والفتيات، فوجد ابراهيم ضالته في (فتاة المكتبة) التي اضاءت في قلبه أول شعلة. وكانت تلك الصلات - على ما فيها من الاكتفاء بالنظر - كافية للشاعر ان ينمّي بذرة الشعر في سليقته العطشى » .

دار الندوة : وفي عام ١٩٢٦ اجتمع نفر من طلاب الجامعة الاميركية هواة الأدب، وقرروا انشاء حلقة أدبية أطلقوا عليها اسم (دار الندوة) وكان قوام تلك الحلقة السادة : عمر فروخ (بيروت) ابراهيم طوقان (نابلس) وجيه بارودي (حماه) حافظ جميل (بغداد) نديم بارودي (حماه) واختار كل منهم اسماً أدبياً مستعاراً، فاختار فروخ (صريع الغواني) وطوقان (العباس بن الاحنف)

---

١ - « أخي ابراهيم » ص- ٢٤

٢ - ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب » ص - ١٨

وباروديّ (ديك الجن الحمصي) وجميل (ابو نواس) ونديم (كاتب دار الندوة) وغلبت على هذه الحلقة روح المرح والهزل وكثرت مساجلاتها الغزلية !

وكان ابراهيم وحافظ جميل زميلين في صف واحد وكانت اوقاتها أكثر توفراً على نظم الشعر ، وكان أشعر هؤلاء الفرسان ، ابراهيم طوقان ، وكان لـ (دار الندوة) - كما أفاد الدكتور فروخ - سجل تدون فيه وقائع الجلسات والمساجلات الشعرية ، وبقي ذلك الدفتر في عهدة (كاتب دار الندوة) نديم باروديّ .

فتاة أحلامه : « وفي الجامعة[1] الاميركية تفتّح قلب ابراهيم للهوى ، ثم شغلته فتاة واحدة عن كل فتاة اخرى ، تلك كانت من قرية قرب الناصرة اسمها كفر كنَه (وادي الرمان) في فلسطين » .

أيا واديَ الرمانِ لا طبتَ منزلا　　اذا هي لم تنعم بظلك سرمدا
كأنيَ لم أنزل ديارك مرة　　ولم ألقَ في اهليك حباً ولا ندى!

« ... جاءت[2] هذه الفتاة الى الجامعة الاميركية ومكثت فيها سنة واحدة (٩٢٥ - ١٩٢٦) القت في خلالها شباك هواها على كثيرين ثم وقعت في هوى ابراهيم ، ولم تكن هذه الفتاة جميلة بالمعنى الذي تواضع عليه واضعو أقيسة الجمال: كانت فتاة فارعة الطول ، سمراء مفصلة نواحي الوجه ، تجول على وجهها ابتسامة خفيفة إذا كانت غافلة في مقعدها أو مسيرها ، فاذا نبهتها أنفاس متأمل أو نظرات متتبع غاضت ابتسامتها وتجلّت على وجهها نفرة ثم بدا النزق في حركاتها مشوباً بالدلال ، تلك كانت (م.ص[3]) التي نظم فيها ابراهيم معظم قصائده في الغزل ،

---

١ و ٢ - شاعران معاصران » ص - ٣٢ و ٣٣

٣ - في عام ١٩٣٠ اقترن بها شكري الياس سلمان - من القدس أصلا - وكان ترجمان سياح ، وفي ١٩٤٦ طلقها . وبعد نكبة فلسطين عادت الى « كفر كنه » قريتها الوادعة ، وفي ليلة من ليالي كانون الاول عام ١٩٥٤ اصيبت بذات الرئة فلفظت انفاسها وباب غرفتها موصد عليها ، ولم يقف ذووها على نبأ وفاتها الا في صباح اليوم التالي ، ففارقت هذه الحياة الدنيا ولحقت بربها وفي قلبها جمرات حامية من الزمان وظلم الناس !

ولما تركت هذه الفتاة الجامعة استمرت صلتها بابراهيم مدة طويلة بعد ذلك ! »

فتنتْ هذه السمراء اللعوب ، الفارعة القوام ، الأنيقة الهندام ، رعيلًا لجباً من الطلاب ، فاضاعوا أوقاتهم في تتبع خطاها ، ومن اولئك المتيَّمين المعاميد ابراهيم طوقان الذي ارسل فيها الشعر الرائق ، والغزل الصادق !

من بواكير غزله : كان إبراهيم يسكن في الجامعة الأميركية ، وغرفته تطل على مدخل الجامعة الرئيسي ، وكانت الفتيات يسكنّ خارج الجامعة ، وفي كل صباح كان إبراهيم يترقب من شباك غرفته (فتاة احلامه) ووصف هذا المشهد الرائع في قصيدته « بكوري عند شباكي » التي نشرتها (الاحرار المصورة) عام ١٩٢٦ وتناقلتها الصحف الادبية في العالم العربي :

بكوري عند شباكي لأنشقَ طيبَ ريّاك
ولا سلوى سوى نجوى أُسرُّ بها لمغناك
أسرِّحُ منه لي طرفاً أمنّيه بمرآك !

وطرفاً من قرار الدار [1] موعوداً بلقياك
تمر علي ساعات أشيّعُها بذكراك
وأخشى ان يرفّ الجفنُ يحرمني محيّاك
طلعتِ فما لقلبي شاءَ يفضحني فسمّاك !
(صباح النور) من دَنفٍ تنهد ثم حيّاك

---

١ — الجامعة الاميركية .

سلام الروح والريحان أنتِ نعيمُ دنياك

...

وداعاً يا معذبتي وعين الله ترعاك
وداعَ سويعة تمضي على جمر وألقاك

وأنسى ليلةً سَلفت وطرفي ساهرٌ باكِ
ومفجع اضلع مُنيتْ بنيرانٍ وأشواك

شكرتُ اللهَ ان (الدرس) يجمعني وإياكُ
وتُلقين السؤال عليّ في أمر تعدّاك !

وحين أجيب تمنحني ابتسام الشكر عيناكِ
هجرت (الدارَ) أضربُ في فضاءِ الله لولاك !

ولولا رحمة العينين قلباً بانَ يهواك
وعطف من لدنك على أسى في النفس فتّاك
إذن لرأيتني يوماً صريعاً تحت شُبّاكي

وحالما نشرت هذه القصيدة في (الاحرار المصورة) أخذت العيون في التغماز.. والأصابع في الإيماء.. مشيرة الى (الفتاة) التي أوحت بهذه القصيدة. وكان من جرأة (البعض) أن حمل عـــدد (الاحرار المصورة) الى (م. ص) مشيراً الى القصيدة ببسمة خبيثة فثارت ثائرتها ،لكنها آثرت السكوت خشية التشهير ولاذتْ

بالصبر .. ومن يدري فلعلها كانت في سريرتها مغتبطة بهذا الغزل الذي رفع من شأنها ولفت اليها الأنظار !

لم يقف كلف ابراهيم بغادة (وادي الرمان) عند هذا الحد ، بل تضاعف غزله في فاتنة لبّه ، وناهشة قلبه ، وأرسل في وصفها وهي سادرة يوماً في مكتبة الجامعة قصيدة كان لها دويّ بعيد في أوساط الجامعة ، وفيها تمنّى أن يكون حظه منها كحظ كتابها الذي تُقلبه أناملها وتتملى أسطره وتتفرس في نقاطه، ودونك تلك الخريدة الشعرية :

وغريرة في المكتبهْ بجمالها مُتنقّبهْ
أبصرتُها عند الصباح الغضّ تُشبهُ كوكبهْ
جَلَستْ لتقرأ أو لتكتبَ ما المعلمُ رَتّبَهْ
فدنوتُ استرقُ الخطى حتى جلستُ بمقربَهْ
وحبستُ ،حتى لا أرى أنفاسيَ المتلهّبهْ
ونهيتُ قلبي عن خفوقٍ فاضحٍ ، فتجنّبَهْ

. . .

راقبتها فشهدتُ أن اللهَ أجزلَ في الهِبَهْ
حملَ الثرى منها على نور اليدين وَقلّبَهْ
وسقاهُ في الفردوس مختومَ الرحيقِ وركّبَهْ
فإذا بهـــا مَلَكٌ تنزّلَ للقلوبِ المتْعَبَهْ
يا ليتَ حظّ كتابها لضلوعيَ المتعذّبهْ
حضنَتْهُ تقرأ ماحوى وحنَتْ عليهوما انتَبهْ
فإذا انتهى وجهٌ و نال ذكاؤها ما استوعَبَهْ
سمَحَتْ لأنملها الجميل بريقها كي تقْلِبَهْ

ولم تقف فتنة حسناء (وادي الرمان) لابراهيم عند حد ولوج مكتبة الجامعة وانصرافها للمطالعة ، بل فتنتهُ غمغمةُ الكلمات .. ولفظ (السين) (ثاء) فزادته الغمغمة هياماً ، ورشاش (السينات) ، منطلقة من ثناياها العذاب، كلفاً وغراماً :

وسمعتُ وهي تغمغمُ الكلمات نجوى مطربهْ
ورأيتُ في الفم بدعة خلاّبةً مستعذَبهْ
إحدى الثنايا النيرّاتِ بَدَتْ وليس لها شَبَهْ
مثلومة من طرفها لا تحسبنْها مَثْلَبَهْ
هي ، لو علمتَ ، من المحاسنِ عند أرفع مَرْتَبَهْ
هي مصدر(السينات)تكسبُها صدىً ما أعذَبَهْ!

و (لثغة) حسناء كفر كنه هذه تذكرني بـ (لثغة) مستحبة فتَنَتْ الشاعر الكندي المنبجي، إذْ اجتاز يوماً (دير مار ماعوث) على شاطىء الفرات فاستحسنه وقال : « ... ورأيت في رهبانه غلاماً قد ترّهبَ فخاطبته فإذا به أحلى النـاس الفاظاً على (لثغة) فيه تجعل (السين) (ثاءً) فشددت سمّاريتي [1] الى جانب الدير واشتريتُ شراباً من الرهبان وبتُّ هناك منادماً ذلك الغلام فلمـــا أردت الرحيلَ أنشدته :

يا طيبَ ليلةِ دير مَرْ ماعوث فسقاهُ ربُّ الناسِ صوبَ غيوثِ
وسقى حماماتٍ هناكَ صوادحاً أبداً على سدُرٍ هنـاك ردوثِ

---

١ ـ الأفصح ان يقول السميرية « ضرب من السفن »

ومورّد الوجنات من رهبانه هو بينهم كالظبي بين ليوثِ

ذي (لثغة) فتّانة فيسمي (الطاو-وس) -حين يقول - بـ (الطاووث) !

حاولتُ منه (قبلةً) فأجابني : لا و (المثيح) وحرمة (الناقوث) !
أتراك ما تخشى عقوبة خالق تعشيه بينَ (شمامث) و (قثوث) ?

ولم يقف كلف ابراهيم عند حدّ ما أسلفنا في (فتاة المكتبة) بل ظلّ يتغنى بفتنة (جبّار الجمال) .. ويتغزل بالسنّ الضاحكة (مصدر السينات) !

وأما وقلب قد رأت في الساجدين تقلّبَهْ
صلى لجبّار الجمال ولا يزال معذّبهْ
خفقانه متواصل والليلُ ينشر غيهَبَهْ
متعذّبٌ بنهاره حتى يزور المكتبهْ
أما وعينك والقوى السحرية المتحجّبهْ
ما رمتُ أكثرَ من حديثٍ، طيبُ ثغرك طيّبَهْ
وأروم(سنّك)ضاحكاً حتى يلوحَ وأرقبهْ!

« ... واستطاع[1] هذا الشاعر أن يمد حبال الود بينه وبين فتاته ، فصار على ترادف الأيام يكلمها ويقترب من مجلسها ، ولم يأبه لغضب ابن عمّها الذي استعدته عليه صوناً لكرامتها . فكان ينتهز السوانح للقائها ولا يتحرج من معاودة الغزل فيها حتى انقادت لهواه وبقي يحفظ لها وتحفظ له هذا الغرام

١ - « ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب » ص- ١١٢

الذي غدا بعد حين ذكريات .. وفيها قال أكثر غزله موّاجاً بالعاطفة والحنين :

نُلقي أحاجيَ بيننا فتثيرنا ... للضحك خاطئة وذات صوابِ
ونردّد الألحان بين شجية ... تُمري مدامعنا وبين عِذابِ

ولقد نعرّض باللقاء لموعدٍ ... فيها ، ونسلكها طريق عتابِ
قمنا وقد سقط الندى وتزاحفت ... سُجُفُ الغمام ثقيلة الأهداب !

وما كانت فتاة هواه الأولى بارعة الشكل ولا فاتنة الطلعة والملامح لكنّ ابراهيم الذي ذهب الى أبعد من الصورة استغرق في صفاتها وأعجبه حديثها وذكاؤها، وانساب تعبيره عن هذه المزايا بغزل اطلق فيه أنفاسه الملتهبة وشعوره بالروعة والجمال كما شاءَ خياله وتعبيره !

ورغم انقطاع (م.ص) عن الدراسة في الجامعة الأميركية وإيابها إلى مسقط رأسها ، ظلت صلة ابراهيم بها تزداد وثوقاً خصوصاً في فلسطين ، ومن اصدقاء الشاعر من أكّد لي أن ابراهيم زار فتاة احلامه في كفركنة ونزل في رحاب أهلها ضيفاً .

أيا (واديَ الرمانِ) لا طبت وادياً ... اذا هي لم تنعم بظلّك سرمدا
ويا (واديَ الرمان) لا ساغ طعمه ... إذا أنا لم امددْ لذاك الجنى (يدا) !

ويا (واديَ الرمان) واهاً وعندهم ... حرامٌ على المحزون أن يتنهّدا !
كأنيَ لم انزلْ ديارك مرة ... ولم ألقَ في أهليك حُباً ولا ندى !

ولم تسقني كأس المدام (حبيبةٌ) ... وردتُ ثناياها مع الكأس موردا !
ولم توحِ لي شعراً ولا قمتُ منشداً ... ولم يروِ شعري عندليبك منشداً

« من الذكريات[1] الجميلة المحببة التي تنطوي على مرح وعبث موشّحٌ عذب أنشده ابراهيم في بيروت بينما لم تكن هي في بيروت ! »

وهذا الموشح نشرته عام ١٩٢٨ مجلة (البرق) البيروتية لصاحبها الشاعر المبدع (الاخطل الصغير) :

نبّهتني صوادحُ الأطيارِ
تتغنى على ذرى الاشجار
وتجلّت مليكة الانوار

فوق عرش الصباح ترشف طلاً من ثغور الاقاح غلاً ونهلا
فتمنيتُ لو شقيقة روحي باكرتني الى جنى الأزهار

أنا في روضة أباحتْ جناها
كلّ ذي صبوة كئيب أتاها
ها هنا وردة يفوح شذاها

ها هنا نرجس يحيّي الأقاحا والدوالي تعانق التفاحا
بادري نستبقْ معاً وارف الظلّ ونقضِ النهار بعد النهار

ضحك الروضُ حين فاضت عيونهْ
وترامى فوق الثرى ياسمينُه
هام صفصافه فناحت غصونه !

---

١ – « شاعران معاصران » ص – ٨٨ .

فسواء هيامه وهيامي غير انّي أبكي على أيامي
فجعتني بك النوى حين شبتْ لوعة في الضلوع ذات أوار

مرّ عام أخفي عن الناس ما بي
من حنين مبرح وعذاب
ولقد يسألون : فِيمَ اكتئابي ؟ !

ويحهم كيف يُبصرون دموعي ثم لا يدركون ما بضلوعي !
ولقد يكتمُ المحبُّ هواه فتبوح الدموعُ بالأسرار

ذاكر أنت عهدنا يا غديرُ ؟
يوم كنّا والعيش غضٌّ نضير !
وعلى ضفتيك كنا نسير

فرويت الحديث عنا شجونا وأخذنا عليك ألا تخونا
فأعد لي ذاك الحديث فإني أذهلتني النوى عن التذكار

ذاكر أنت والازاهير تندى
كم نظمْنا منهن للجيد عقدا
فاذا هبت الصّبا فاح ندّا

وانقضى اللهوُ مؤْذناً بالفراقِ فذوى العقدُ من طويل العناقِ
لم يزل خيطه يلوح وجسمي يتوارى سُقماً عن الأبصار !

يا ابنةَ الأيكِ غرِّدي أو فنوحي
فعسى يلأمُ الهديلُ جروحي
نفَدَ الصبرُ عن شقيقة روحي

فاحملي هذه الرسالة عني واسجعي ان أتيتها فوقَ غصنِ
فهيعند الأصيل ُتصغي الى الطيرِ عساها تروحُ بالأخبارِ !

حملتني نحو الحمى أشجاني
فتهيّبتُ من جلال المكانِ
وإذا فوقَ مقلتيّ يدانِ

فتلمّستُ نضرةً ونعيماً وتعرفتُ ما لثمتُ قديما
قلتُ: يا مرحباً وَقبّلتُ كفّاً أنزلتني ضيفاً بأكرم دارِ

خطراتُ النسيمِ في واديكِ
َصبّحتني بقبلة من فيكِ
ثم عادتْ بقبلة تشفيكِ

فسلاماً يا (واديَ الرمان) فزتُ بالروح منك والريحانِ
َواحنيني الى ديارِكِ والرمانُ دانٍ ُيظِلُّ أهل الديارِ !

وما هي إلا أشهر قلائل حتى عصف الحبُّ بقلب (ابراهيم) فزفر زفرة حرّى ، وهتف هتاف الواله المتدلّهِ بباعثة آلامه،وفتاة أحلامه (م.ص) فخاطبها بقوله :

اطفئي غلّتي بقبلة ثغرٍ كوثريٌّ اللمى برودِ الثنايا

وابسمي لي لعل فيضاً من النور يريني من الضلال ُهدايا
أنتِ لا تعلمين ما لوعة الوجدِ ، ألا إنها نذير المنايا !
أنتِ لا تدركين ما يصنع الشوقُ إذا هبّ عاصفاً بالحنايا

انّ في أضلعي لناراً تلظّى طار من هولها فؤادي شظايا

« ... وبعد عام كامل[1] عاد (ابراهيم) فزفر زفرة شديدة أخرى من لوعة الشوق الى فتاته بلا ريب ، كما ترى في الأبيات التالية. ومع أن هذه الأبيات ليست من النمط العالي فانها صادقة العاطفة ، عذبة الكلمات ، ولا غرو فهي مقطوعة مرتجلة في ثنايا رسالة !

في آب من عام ١٩٢٨ كنتُ أشكو ضعفاً في عينيّ من أثر الإجهاد فكتب اليّ ابراهيم رسالة فيها هذه الأبيات :

كيف عيناك يا عُمرْ[2] ؟ أنا أدماهما السهر !
وعصيّ من الدموع طغى الهمّ فانهمر !
وخيال ألمَّ بي من حبيب لدى السحر
طافَ حيناً بمضجعي وتوارى عن النظر !
أتبعتْه جوانحي مهجتي عندما نفر !

وادي الرمان : ما ذكر ابراهيم يوماً فتاة احلامه (م.ص) إلاّ ذكر (معها وادي الرمان) مدرج طفولتها الأول ، وبهذا الوادي (المقدس) الساحر تغنّى ابراهيم وشدا بزهره ورمانه ، ووروده وريحانه ، وكيف لا يتغنّى بهذا الوادي الوادع ، وفي رياضه نبتت ريحانة قلبه ، وترعرعتْ سالبة لبّه ، تلك الغادة اللعوب التي ألهمته غزلاً رائقاً ، وحبته وداً صادقاً ؟!

خاطب ابراهيم (وادي الرمان) بقصائد شتّى ، دعا في (بعضها) على ذلك (الوادي) بالصاب والعلقم ... ومرارة الثمر ... وأشاد في (بعضها) بعليل

---

١ – (شاعران معاصران) ص – ٨٩

٢ – هو الدكتور عمر فروخ صديق ابراهيم .

هواه ، وشذا رباه ، طالما أنبتتْ أرضه (غادة كفركنه) وكانت مسرحاً لطفولتها :

أيا (وادي الرمان) لا طبتَ وادياً — إذا هي لم تنعم بظلك سرمدا
ويا (وادي الرمانِ) لا ساغ طعمُهُ — حرام على المحزون ان يتنهدا
كأنيَ لم انزلْ ديارك مرةً — ولم ألق في أهليك حبّاً ولا ندى!
ولم تسقني كأس المدام حبيبةٌ — وردت ثناياها مع الكأس موردا !
ولم توح لي شعراً وما قمت منشداً — ولم يروِ شعري عندليبك منشدا!

حسَر الطبيب الشاعر وجيه بارودي (نزيل حماه) اللثام عن قصيدة نشرها في ديوانه (بين الغواني وبيني !) وقد أسهم في نظمها رفيقه وصديقه في الجامعة الاميركية ابراهيم طوقان !

قال الطبيب (البارودي) في ص - ٧٩ من ديوانه :

« . . إن القصيدة مثال مبتكر ، امتزج روحانا بكل كلمة وبكل شطرة ، فجاءت قصيدة لا يستطيع ناقد مهما حقّق ودقّق ان يجد دليلاً على ينبوعها الثنائي ! »

وفي هذه القصيدة اشترك طوقان والبارودي في التغنيّ بـ (وادي الرمان) والتعبير عن روعة رياضه وكرومه ، فصوّرا طبيعته الفتانة ، ووصفا زهره وريحانه :

يا رب (وادٍ) قد تفتّح ورده — واخضلّ فهو بطلّهِ مغرورقُ !
وتأنّقَ الوسميّ في ترصيعه — بالدرّ ، فهو المبدعُ المتأنق !
ترنو اليه محاجر من نرجس — خجلٍ يغالبه الحياءُ فيطرقُ !
والغيم يضحك للجَنوب اذا مَرتْ — وتناله كفُّ الشمال فيغدق

والبيلسانُ أكفُّهُ ممــدودة والطلُّ ذاكَ المنعم المتصدّقُ !
والياسمين كواكبٌ ومواكبٌ شتىّ تآلّـف شملهـــا المتفرّقُ
والماءُ بين مماطلٍ ومواصلٍ ينأى ويدنو سيلُـهُ المتدفـقُ !
وغرائبُ الريحانِ حول ضفافه منضودة تطفو عليه وتغرقُ !
وانظرْ الى نيلوفر الوانـــه شتىّ تحيطُ به المياه وتحدقُ !
وعيونُهُ رفّافـــةٌ أجفانها فوق الغدير وكل عين زورقُ !
(وادٍ) يهيم به الجمـال وانه ليكاد ينطقه الجمـال فينطقُ
جرّ النسيمُ عليه فضـل ردائه وبفضله أضحى يفوحُ ويعبقُ
قد فوّفته يدُ الربيـع بوشيها فعليه من حلل الطبيعة رونقُ
باكرْتُه فلقيت عنـــد غديره هيفاء ترقص والغديرُ يصفـّقُ
النورُ في جنبـــاته متألق والنورُ في وجنـــاتها يتألقُ

...

لما التقينا والعيونـُ سوابـقٌ ودّ الفؤاد لو أنـه لكَ أسبقُ
يا يوم جاوزتُ الخمائلَ في الضحى والشمس مشرقة ووجهك مشرق !
كم ظلّلتنا روعة أغصانهـــا أحنى من الأم الرؤوم وأشفقُ !
والطير هاتفـــة بالحان الهوى تعلو وتهبـــط تارة وتحلّقُ
أ (قلوبنا) في الروض أم (رمّانه) أضحى على اغصـــانه يتفلق ؟!
تتلهّبُ النـيران في أحشائه والمـاءُ تحت ظلاله يترقرقُ !
لم أدر حين جنيته أرحيقهُ أم ريقُكِ المعسول ما أتذوّقُ ؟!
ثم انثنيت عن الرياض ومقلتي عبرى وقلبي في حبالك موثقُ !

والشمسُ تجنح للأصيل كأنها وجناتنا والبين صاحَ : تفرّقوا !
أوحيتِ لي من آي حسنك آيةً إني بما أوحيته لمصدّقُ !

قبل وقوع النكبة ، وتشرد الأهل والأحبّة ، كان الغادون الرائحون بين (طبريا – الناصرة – حيفا) يجدون في الساحات العامة صبية ينادون : « كفر كنه يا رمان ، ناصري يا رمان ! »

ولرمان كفر كنّه نكهة لا تدانيها نكهة ... إذ ضرب رقماً قياسياً في حلاوة طعمه ، وكبير حجمه ، وحبّاته الفائقة الاحمرار !

وذات يوم مرّ ابراهيم باحد احياءِ الناصرة فسمع غلاماً ينادي « كفر كنّه يا رمان ! »

فانتعشَ فؤاده ، وعاوده هواه الأول ، واستروحت نفسه في أكوام الرمان ... نفحات معطرة من أنفاس مَنْ أوحت له الشعر فهامَ بها و بـ (وادي رمانها !) وانشأ يقول :

جزتُ بالحي في العشي فهبّت نفحة أنعشتْ فؤادي المعنّى
قلت : « منها[1] » ودرت انظر حولي نظرات الملهوف يسرى ويمنى !
وافقتْ (نظرتي) (نداء) غلام : « ناصري يا رمان ، من كفر كنّا » !
قلت : « اسرعْ به ، فدىً لك مالي وترنَّمْ بذكره وتغنَّ
يا (رسولَ الحبيبِ) من حيث لم تدرِ لقد جئتني بما أتمنّى ! »

ذكر ابراهيم (وادي الرمان) في اكثر غزلياته ... التي صبّها على

« ١ » – الضمير يعود الى « كفر كنه »

(م. ص) وفي قصيدته التي خاطب بها صديقه (أبا[1] الخطاب) عرّج ابراهيم على تذكر ذلك (الوادي)الوادي الساحر، والتغنّي بمفاتنه ،ومنها قوله :

هل (كفركنة) مرجع لي ذكرها ما فاتني من عنفوان شبابي
أم في (صباياها) وفي (رمانها) ما يبعث المدفونَ من آرابي ؟!

وفي موشح عذب نظمه ابراهيم في بيروت ، بينما كانت ريحانة قلبه في « كفر كنّه » عرّج الشاعر على ذكرى الوادي المقدس ...والتغنّي بجنيه وثماره ، ونسرينه وأزهاره ، وفي ذلك أنشد :

خطرات النسيم في « واديك »
صبّحتْني بقبلة من فيك !
ثم عادتْ بقبلة تشفيك !

فسلاماً يا « وادي الرمانِ » فزتُ بالروح منك والريحانِ
وَاحنيني الى ديارك و(الرّمان) دانٍ يظلّ أهل الديارِ

يا تين يا توت : كانت قصيدة « يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمان ، يا عنب » أول شعر تناهى الينا من نتاج ابراهيم ، وكان ذلك عام ١٩٢٨ ، ولقد اسهم في نظمها من (إخوان الصفا) : ابراهيم طوقان ، حافظ جميل ، وجيه بارودي ، إذ استهوتهم شقيقتان دمشقيتان من اسرة (تين) هما «ليلى» و « اليس » وقد أتمّتا الدراسة في الجامعة الاميركية عام ١٩٣٠ . وبعد ان كانت هذه القصيدة مقصورة على ناظمي عقدها وعلى بعض المقربين منهم تجاوز أمرها تخوم الهمس... وبلغ عميد الجامعة المرحوم (نيكولي) ، فحاسب ابراهيم «وحده» عليها..!

وحول هذه القصيدة كتب الدكتور وجيه بارودي « حماه » الى الدكتور عمر فروخ « بيروت » عام ١٩٥٤ ما خلاصته :

---

١ – وهو يعني « ابا سلمى » .

« ذات يوم عاد ابراهيم وحافظ جميل من البحر وهما ينشدان المقاطع الثلاثة الاولى من قصيدة : « يا تين ، يا توت ! » فاشتركت معهما في النظم وأكملنا القصيدة ، ونظراً لروعتها ، وذيوع شهرتها ، أثبت ابياتها تالياً ، والفت النظر الى التورية » في مقاطعها :

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ   يا درُّ ، يا ماسُ ، يا ياقوتُ ، يا ذهبُ !
الله ، الله ، ما هذا الدلال ؟ وما   هذا الصدود ؟ وما للقلب يضطربُ ؟

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ
الشمسُ ، ما الشمسُ ، إن الشمسَ تنكسف

البدرُ ، ما البدرُ ، إن البدر ينخسفُ !
الدمعُ ، ما الدمعُ ، إن الدمع ينذرفُ

يا منيةَ القلب ، هل وصلٌ وأنصرفُ ؟ !

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

يا تينُ ، يا ليتَ سرح التين يجمعنا   يا توتُ ، يا ليتَ ظلّ التوت مضجعنا
وأنتَ ليتكَ يا (رمانُ) ترضعنا   والكرمُ ، يا ليت بنت الكرم تصرعنا

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

يا يومَ اقبلنَ أشباهَ التماثيل   مكللاتٍ بهالات الأكاليل
تبعتُ (ليلى) و (ليلي) ذات تضليل   (ليلي) فديتُكِ ما أقساكِ يا (ليلي) !

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

يا جارة القلب يا قمرية الوادي   يا غادة لا عداها ريّق الغادي

لئن ظفرت بقرب بعد إبعادِ يوماً فإني من الزلفى بميعاد !

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

ما نفحةُ الآس يا ورد البساتينِ ويا شذا نرجس غضٍّ ونسرين !
ويا هزاراً شدا بين الأفانين أراحل أنت ، أم باقٍ إلى حينِ ؟

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

يا كوكبَ الحسن يزهو في العشيّاتِ ويا ربيبةَ أترابِ السمواتِ
يا مطلع الفجر وضّاح الثنياتِ طوفي علينا بأكوابِ الحميّاتِ

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

باكرتُ يا تينُ ، نحو التينِ أجنيهِ وأذرفُ الدمعَ من عيني وأسقيهِ
أسندتُ رأسي إلى فرعٍ أناجيه فرجّعَ الطيرُ نوحي في أعاليه

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

هل (نظرة) لعميد القلبِ مفتون ؟ هل (نهلة) من لماك العذبِ ترويني ؟
أوّاه أبكي على من ليس يبكيني يا مَنْ رأى (نرجساً) يبكي على (تين) ؟

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

حدائقَ الشامِ عين الله ترعاكِ ولا سَرَتْ نسمةٌ إلا بريّاكِ !
يا مرتعَ العرب الأتراب نعماكِ تفترّ عن مهجة الدنيا ثناياكِ

يا تينُ ، يا توتُ ، يا رمانُ ، يا عنبُ !

وعاودتْ ابراهيمَ ذكريات الماضي وأطيافه ، فتذكّرَ الحسناء الدمشقية (ليلي تين) تلك الغادة التي رمت قلبه بنبلة (كيوبيد) فخرّ البلبلُ الغرّيدُ

صريع غرام عاصف ، وهوىً جارف ، وراح يسأل صديقه الدكتور عمر فروخ بقوله :

أين (ليلي) على شوا   طىء بيروتَ يا (عُمرْ)؟
كان من (فرعها) الظلا   مُ ومن (وجهها) القمرْ!
ومدامي ، وقد ظفر   تُ بها من نشوة الظفر !

. . .

مَنْ معيدٌ مسرّتي   والزمانَ الذي غَبَرْ ؟
حين لم افتكر بهج   رٍ ولا الهاجرُ افتكرْ !
ولقد قيلَ في الحيا   ةِ هي اللمحُ بالبصرْ !
هكذا يذهبُ السرو   رُ سريعاً إذا حضرْ !

« ... وفي تموز [1] من عام ١٩٢٩ ذهب ابراهيم الى القاهرة للاستشفاء في الدرجة الأولى ، وللقاء أخيه أحمد الذي كان راجعاً يومذاك من انكلترا بعد اتمام دراسته في جامعة اوكسفورد ، ويظهر بوضوح أن أيامَ الجامعة الأميركية التي كان قد ودعها في ذلك العام نفسه إذ تخرج فيها برتبة (بكالوريوس علوم) كانت لا تزال تملأ قلبه من هوى الغريرة التي نظم فيها بضع قصائد ، وفي هذه القصيدة عتاب واضح لأخيه أحمد وتعريض جليّ ، إن ابراهيم لم يكن يريد أن يترك هوى فتاته على الرغم مما كان به من السقم والنحول ، ويبدو أنّ ابراهيم قال في آب

---

١ - « شاعران معاصران » ص ٨٩ و ٩٠

١٩٢٩ بعد رجوعه من مصر » :

أعيدي الى المُضنى – وان بعد الهوى –
بلهنيـة[١] العيشِ الذي كان أرغـدا

تباركَ هذا الوجهُ مـا أوضح السنى
وما أطيبَ المفترّ والمتورّدا !

فقدتك لكني فقدتُ (ثلاثةً)
سواك : (فؤادي) و (الأمانيّ) و(الهدى) !

وأبقيتِ لي غير – القنوط – (ثلاثةً) :
(هواكِ) و (سقمي) و (الحنين) المؤبّدا !

. . .

أيا (واديَ الرمانِ) لا طبتَ منزلاً
إذا (هي) لم تنعمْ بظلك سرمـدا !

ويا (واديَ الرمانِ) لا ساغَ طعمه
إذا أنا لم أمددْ لهذا الجنى (يدا) !

ويا (واديَ الرمانِ) واهـاً ، وعندهم
حرام على المحزون أن يتنهّدا !

---

١ – طيب العيش ورخاؤه .

كأنيَ لم انزلْ ديارِكِ مرةً
ولم ألقَ من أهليك حُبّاً ولا ندى !

ولم تسقني كأسَ المدامِ (حبيبةٌ)
وردتْ ثناياهـا مع الكأس موردا !

ولم توحِ لي شعراً ولا قمتُ منشداً
ولم يروِ شعري عندليبك منشدا !

ما استعدت يوماً أبيات هذه القصيدة،وحدّقتُ مليّاً في الفاظها ومعانيها إلاّ أطلتُ الوقوف والتأمّل في أبياتها الأربعة التالية :

(أخي) و (حبيبي) كنتُ أرجوك مُسْعِدا
يسامحك الرحمنُ .. ما كنتَ مسعدا !

ألمْ تَرني في (مصر) أطلبُ شافيــاً
وراءك إشفائي على هوّة الردى ؟!

ألمْ تَرني في مضجعي مُتقلباً ؟!
أقلّبُ في الافلاكِ طرفاً مُسَهّدا ؟!

ومن عجبٍ انّا شبيهان في الهوى
بِمَن[1] أنت تهوى ، هل أطقتَ التجلّدا ؟

وتقادم عهد ذاك الحبّ... فطوى ابراهيم كشحه ، وتناسى خبره ،اذ التأمت

---

١ - الباء في «بمن» للقسم .

جراحات قلبه ، وذات ليلة ضمّ مقهىً في القدس المحتلة كلًا من : المرحوم اسعاف النشاشيبي ، المرحوم ابراهيم طوقان ، خير الدين الزركلي ، عبد الكريم الكرمي (أبي سلمى) وأخذت فتاة أجنبية ترقص على أنغام الموسيقى فقال (اسعاف) مُرتجلًا :

يا فتاتي أنتِ فتنهْ !

ابراهيم : أنتِ حوريةُ جنّهْ

خير الدين : كلما حانَ التفاتٌ منك كانت ليَ أنهْ !

أبو سلمى : كدتِ يا حلوةُ تنسينا (صبايا كفركنهْ)

وكأني بهذه الأبيات قد حرّكت شاعرية (أبي سلمى) فنظم أبياتاً عام١٩٣٤ أنْحَلَها ابراهيم وذيّلها بتوقيعه .. وابراهيم لا علم له بها .. ودفعها إلى جريدة (فلسطين)اليافية لتنشر في عدد الأحد الأسبوعي الذي درجت على اصداره طافحاً بالنفثات الأدبية.

وكان الاستاذ حنا سويدا يعمل موظفاً في يافا ويسهم في تحرير الحقل الأدبي من ذلك العدد الاسبوعي،وحالما اطلعَ على أبيات (أبي سلمى) بتوقيع ابراهيم طوقان أجاب ابراهيم عن تفاؤله بأبيات نشرت تحت أبيات (أبي سلمى) . (أبو الخطّاب) هذه صورتها :

يا (صبايا كفركنّهْ) آهِ من أعينكنّهْ
حُطمت كأس الصبابا تِ على أرجلكنّهْ

يا شقيق الروحِ قُلْ لي أينَ من تعبد هنّهْ
أين من يبعثن ناراً في الحشا من نور هنّه ؟

أينَ هنّ ؟ أين هنّ ؟ أينَ هنّ ؟ أين هُنّهْ ؟

ومما وعته الذاكرة من ردّ الاستاذ (أبي الخطّاب) قوله:

يا (ابن طوقان) أتسأ لُ عن ظباءٍ نافراتِ ؟
وخدودٍ تتلظى وشفاهٍ مغرياتِ

فـ (صبايا كفر كنّه) لعياني باديات
أينما كنّ فهنّ في فؤادي عابثات !

وفي صباح الأحد تناول القراء (فلسطين) واذ على صفحتها الأدبية (قنبلة) أبي سلمى و (ردّ) أبي الخطّاب فبادر ابراهيم الى دحض هذه (الفرية) بقصيدة نشرتها (فلسطين) في عددها الاسبوعي المصور تحت عنوان : (ذكرى ليلة زهراء ، مرفوعة الى الاستاذ أبي الخطاب) ودونك أبياتها :

احبس يراعَكَ يا (أبا الخطّابِ) قد حلّ بي ما لم يقعْ بحسابي
تلك القصيدة لم أقلْ أبياتها لكنها لـ « مزوّر نصّاب » !!

هذا (أبو سلمى) ولا واللهِ ما نكأ الجروحَ سواه من أصحابي !
هيهاتَ أن يخفى عليّ وكلّه قلب بلا (بابٍ) ولا (بوّابِ[1]) !

الى ن يقول :

هل (كفر كنة) مرجعٌ لي ذكرها ما فاتني من عنفوان شبابي ؟!
أمْ من (صباياها) وفي (رمانها) ما يبعث المدفون من آرابي ؟!

لو تنفع الذكرى ... ذكرت عشية زهراءَ بين كواعبٍ أترابِ !
فيهنّ آسرةُ القلوب بحسنها ودلالها وحديثها الخلابِ !

---

١ – في عجز هذا البيت تورية مفادها : ان « (ابا سلمى) لا يكتم سراً !..

(روحٌ) أخفُّ من النسيم و(خاطرٌ) كالبرق مقرون بحسن جـوابِ !
غُرٌّ ثناياها وأشهد أنها ممزوجة رشفاتهـا بشراب

تُلقي أحاجيَ بيننا فتثيرنا للضحك خاطئةٌ وذاتُ صوابِ !
ونردّدُ الالحانَ بينَ شجيةٍ تُمري مدامعنا وبين عذابِ !

ولقد نعرض باللقاء لموعدٍ فيها ونسلكها طريقَ عتابِ !

. . .

قمنا وقد سَقَطَ الندى وتزاحفتْ سجفُ الغمامِ ثقيلةَ الأهدابِ !
تخفي محيّـا البدر ثم يُبينـه عبث المليحة دوننا بنقابِ !
وَجَفَتْ مضاجعها الجنوبُ وملؤها خفقان مضطرم الهوى وثّابِ !

بتنا على صفو وخوف تفرّقٍ للعاشقين مهيّـأُ الأسبابِ !
(نيسان) هانَ عليَّ حكمك بالنوى لما تحطّمتِ المُنى في (آبِ) !

ووصف ابراهيم ليلة لقاء الحبيبين ، وصفاً دقيقاً بارعاً ثم ختم قصيدته بقوله :
يا ليت من فَجَعتْ فؤادي بالمُنى لم تُبقِ لي ذكرى تطيل عذابي !

ورغم انقطاع (م. ص.) عن دراستها في الجامعة الاميركية ببيروت وهربها الى (كفركنّه) مسرح طفولتها لتداويَ ندوب قلبها بالسلوى تارةً ، وبترديد (طيف) فتى احلامها تارة أخرى،فقد ظلّ (قلب) ابراهيم يتطلّع الى لقيـا الحبيبة بعد أن هجرت خمائل حبّه الذاوي ، وكانت لأيام خلت تشدو في روض حبّه ، وبين زهور اقاحه :

طيرُ الصبا ولّى ... وكان لي (جار) !
قلت لهُ : « هلاّ ... تعود للدار » ؟

فقال لي : « كلاّ ... كلاّ » وطار !
أظنّهُ ملّ ... مني الجوار !

. . .

خلّفتني أبكي ... عهد الهوى
خُلعتُ من ملكي ... عرشي هوى !

عاش على الفتكِ ... (قلبٌ) غوى
واليومَ في ضنكِ ... واهي القوى

. . .

قال « أبو سلمى » ... زين أترابي :
« صباك قد همّا ... خلّ التصابي ! »

فهاجَ لي غمّا ... أقتل ما بي
قلتُ : نعم حتما ... وشابَ أحبابي ! »

و (فرحة) ابراهيم الكبرى ... يوم يشفي غليله الملهوب بنظرة من بلبله الغرّيد ... ، وقد أفلتَ من يده ، وأبلى شدوه شبابه ، ويوم يمتّع ناظريه بـ (ريحانة قلبه) :

(فرحتي) يومَ أراها ... (جنّتي) نارُ هواها
جنة الحسن لديها ... طيبُها وقفٌ عليها

وردُها في وجنتيها ثمل من مُقلتيها

هي (ريحانةُ قلبي)
ليتها كانت بقربي!

(فرحتي) يوم أراها (جنتي) نار هواها

و (نعيمي) في (شقائي)

كان لي في الحب عهدُ رُبَّ ماضٍ لا يُردُّ
فالتقى (خدٌّ) و (خدٌّ) والتقى (دمعٌ) و (سُهدُ)

جفَّ، يا أيامُ، دمعي!
ضاقَ بالآلامِ ذرعي!

(فرحتي) يوم أراها (جنّتي) نار هواها

و (نعيمي) في (شقائي)

بلبلٌ فوق الغصونِ ساحرٌ جمّ الفنونِ
يا أخا الصوتِ الحنونِ لستَ تدري ما شجوني!

تتسلّى، تتفلّى!
وتراني، أتقلّى!

(فرحتي) يوم أراها (جنّتي) نار هواها

و (نعيمي) في (شقائي)

سمع البلبلُ شجوي باكياً أيام لهوي
فهفا البلبلُ نحوي هاتفاً: أصغِ لشدوي!

قلتُ : « يا بلبلُ دعني
عُدْ الى الدوح وغنّ » !

(فرحتي) يوم أراها (جنتي) نار هواها
و (نعيمي) في (شقائي)

نُحْ معي فالنوحُ أولى بعد من أهوى وأحلى
طرب القلبُ وملاّ أيها البلبلُ هلاّ

بجناحيك انقلبنا !
وبمن أهوى رجعنا !

(فرحتي) يوم أراها (جنّتي) نار هواها
و (نعيمي) في (شقائي)

الهوى أبلى شبابي جاءني من كل بابِ
من صدودٍ لعتاب من عذابٍ لعذابِ

كلُّ هذا لا يُطاقُ !
ثمّ لا يحلو الفراقُ !

(فرحتي) يوم أراها (جنّتي) نار هواها
و (نعيمي) في (شقائي)

عيشُنا ركضٌ بركضِ بعضُنا في إثر بعضِ
والصبا يوم ويمضي ليته يمضي ويُرضي

يا فؤادي ما بكائي ؟ !

أترى يُجدي ندائي ؟ !

(فرحتي) يوم أراها   (جنّتي) نار هواها

و (نعيمي) في (شقائي)

وظلّ ابراهيم يبكي (روض) غرام ذوى ... و (جبّاراً) صال وجالَ ، وأمعن في قلبه تجريحاً وتمزيقاً ، لكنه استمرأ التمزيع ... واستساغ التجريع... وكاشف صاحبة الهوى الجبّار بقوله :

هواكِ جبّارْ   على القلب جارْ

أمان !   أمان !

من زفرة الليلِ   وغمّ النهار

أمان !

يا أملي ، يا نور مستقبلي   أوقعني صمتك في مشكلِ

ما خبّأ الدهرُ بعينك لي ؟

هل ابتسامٌ فيها أم دموعْ   تذيبُ قلبي كمَداً في الضلوعْ

يا ليتَ مكنونها ينجلي !

« سعاد لم تخطر على بالها   ولم تكنْ موضع آمالها

ثم تولّى يسبقُ العاصفه

أصبحتُ لا يشفي غليلي ابتسام   ولا انحناءُ الرأسِ عند السلام !

أولى بنا لو نتشاكى الغرام !

يا حبذا لُقيا على موعدِ وحبذا أخذ يدٍ بيدِ !

حتى يقول الناس: « هامتْ وهام » !

ماذا أصاب (الروض) حتى ذوى ? والهفا ، والغصن حتى التوى ?

وأيُّ بُردٍ للربيعِ انطوى ? !

الروضُ يُملي يا (سعادُ) العبَرْ في زَهَرٍ مثل الأماني انتثر

يا روضة الحسن حذار الهوى :
هواكِ جبّارْ على القلبِ جارْ

أمانْ ! أمانْ !
من زفرة الليل وغمّ النهارْ

أمانْ !

وهام ابراهيم في دنيا المُنى والاحلام ، لكنّه أفاقَ على قبض الريح ... فاذا (الهزار) الذي بهره شدوه قد أُفلتَ من يده ... وطارَ ... طارَ الى عالم بعيد ناءٍ ... والشاعر البائس يتلوّى على فراش من قتاد :

كان هزاراً طرباً بالحسن مُفتنّا
فابتسمَ الحبُّ له فأحسن الظنّا
ثم رماه بالتي تبدّلُ اللحنا
باتَ يهيمُ نائحاً وطالما غنّى !

. . .

حُكمٌ به الحبُّ قضى ما أظلمَ القاضي !

حسبك أن ترضى بـه　　فانني　　راضِ
دعك من المـاضي فلو　　عدتَ　الى　الماضي
وجدتَ　وصل ساعةٍ　　و « دهر إعراضِ » !

. . .

صَحّ الذي جرّبتُهُ　　عنـد « أبي سلمى »
الحبُّ يقتادُ الفتى　　وقلبـه　أعمى .
يسمو بـه حتى اذا　　بَوّأهُ　النـجما .
رمى به من حالقٍ　　يحطمـه　حطما

. . .

عـاش كلانا بالمُنى　　نرسلهـا　شِعرا
تلك رُفـات بَليَت　　تبعثهـا　الذكرى
نصوغها (ابتسامةً)　　أو (دمعة) تُزرى
نشقى بها حتى تحين الراحة الكبرى .

وبعد عام من هجر (م.ص) واعتصامها بحبل الصمت ، وتبتّلها في (الوادي المقدس) ... وادي (الرمان) بعث ابراهيم في ليله الداجي صرخات جازعة اهتزت لها جَنبات الوادي ... ومادت شجيرات الرمان.. بعث وراح يصارح فتاة (أحلامه) بقوله :

هواكِ أصبح نسياً　　كلوعتي　منسيّا
قد كان شغلا لقلبي　　فصار　قلبي　خليا
كأن حلو الاماني　　والوصل لم تك شيّا

مسحت آثار حُبٍّ كانت على شفتيّا
فياجفون استقرّي عاد الرقادُ شهيّا

وارقص على حُبِّ (ليلاك) يا فؤاد مليّاً ...!

وواصل ابراهيم زفراته ونواحه ... وحسر عن ندوبه وجراحه ، التي خلّفتها (غادة كفر كنه) في قلبه بقوله :

لم تزلْ تهجرني منذ سنين ليتني أنعم يوماً برضاك

...

كنت في روضٍ أنيقٍ فاذا بحبيبين من الطير هناك
إن هما طارا يكونان معاً ومعاً لفّهما روح الأراك !
ليتني يا هاجري مثلهما ! في تساقينا الهوى لكن أراك
لم تزل تهجرني مثلهما في تساقينا الهوى لكن أراك
لم تزل تهجرني منذ سنين ليتني أنعم يوماً برضاك ?

...

فيظلام الليل لاحتْ (نجمة) وهفا نجم اليها مطرقاً
يا شقيق الروح ها انهما في عتاب وانقضى ... فاعتنقا
ليتني يا هاجري مثلهما في تشاكينا الهوى لكن أراك
لم تزل تهجرني منذ سنين ليتني أنعم يوماً برضاك

...

شمل الكون الرضى حتى غدا وهو طيب وجمـــال وصفا
يا ملولُ القلب ما في الكون من عاشقين اثنين إلا ّ ائتلفـا

فمتى يا هاجري منك الرضى؟ ومتى يصفو الهوى، لكن أراك
لم تزل تهجرني منذ سنـين ليتني أنعم يوماً برضاك !

وفي أيار من عام ١٩٣١ ناجى ابراهيم « وردة وادي الرمان » بقوله :
جنى عليك الحسنُ يا (وردتي) وطيبُ رياك فذقت العذابْ !
لولاهما لم تُقطعي غضّة ... بل لانطوى في الروض عنك الشباب
لولاهما مرّ بك العاشقون !
لا ينظرون !
وربما أعرض عنـك الندى وجـازك الطيرُ فما غرّدا
عُرفتِ بالفضلِ وكم فاضلٍ جنى عليه الفضلُ (يا وردتي !)

. . .

روضتُكِ الغناءُ (يا وردتي) ! قد انبتت من كل زوجٍ بهيج !
تنفّسَ الصبح بازهارهـا ما أغرب اللونَ وازكى الأريج !
نسرينها وورندها والأقاح
كل صباح !
تنقلُ عنها نسماتُ الصبا تحية لكل قلبٍ صبـا
وطوّفَ الناسُ بارجائها فوقفوا عندكِ يا (وردتي) !

. . .

لله مـا أصدقها حكمـة قد قالها المجهول (١) في عهده : !

(١) – (أبو العلاء المعري)

« تشتاق أيار نفوس الورى … وانما الشوق الى ورده . »

تعزية أودع فيها (الضرير) !

حكم البصير !

ألم يكن في قومه كوكبا … لاح ليمحو نوره الغيهبا
فما لهم آلمهم فضله … حتى لقد آذوه يا (وردتي) !

تحكّمَ الناس بمستضعف … سرٌ من الاسرار لا يدرك !
يا (وردتي) . . . درب سهل بدا … طريقه يهلك من يسلك

هل حسبوا غصنَك لما دنا
سهل الجنى ؟.

كلا بل النفس التي تضعف … تصطنع البأس فلا تعرف
والسر في بطش الورى خوفهم … من هذه الاشواك يا «وردتي» !

وظل ابراهيم يداوي ندوب قلبه بقصائد ومقطعات تلهّى بها عن حب عاصف خلفه في قلبه هجران (م.ص) ومن ذلك قوله :

كبدي من فراقها بين بينا … فمتى موعد اللقاء ؟ وأينا ؟
رب طير مهاجر غاب عنا … شاقه وكره فعاد الينا !
كنت تبكين لو رأيت بكائي … وقديماً أبكى جميلٌ «بثينا»
غير اني ألفت همّي وغمّي … فكلي واشربي . . وقري عيناً

وتلفت ابراهيم يوماً الى قلبه ... فألفاه مسرفاً في الشكوى والتذمر من صدود الغواني وعبثهنّ بقلبه... فانتضى قلمه وراح يصور على القرطاس « القلقَ » و « الشقاء » اللذين أصابا قلبه :

كفاك يا قلب شكوى ... من حب سلمى و «سلوى»!
واحترت يا قلب فانظرْ ... بأيّ ناريك تكوى ؟!
تذيقني الحبّ (مرّاً) ... تخاله أنت (حلوا)
إني لأجزع ان قيلَ ... عاد قلبك يهوى !
فقد وقعتُ ببلوى ! ... نهضتُ منها لبلوى !
وفي الزوايا بقايا ... أبغي اليها سلوا !
يا قلب وحدك فاخفق ... لا استطيع رنوا !

معين الجمال : « ولطوقان [1] قصيدة في مناجاة الجمال سماها « معين الجمال » جاءت صورة واضحه لفن الغزل عنده . وبدراسه هذه القصيدة التي صاغها من أجل (الجمال) وحده وتقديسه ، يمكن أن نتبين طبيعة هذا الغزل :

لقد طلع طوقان بشعره في اوائل الربع الثاني للقرن الحاضر ، وكانت تسود الغزل فيه صناعة فنية كالتي درج عليها الاوائل ، وفي وصف الجمال المخلوق كما تراه الأعين في تلاوينه ، وفي اشكاله وظلاله ، فمعالم الفتون في القدود والخدود ، وفي إسالة الأعناق ودقة الخصور ، وفي التثنّي ، وأخذ السواد من الليل لوصف الشعر وانسكاب الدمع للإعلان عن اللوعة والتألم من الهجر والبين ، كل هذا كان بمنال الشاعر لو أراده على طريقة السابقين .

لكن طوقان طلع بشعره بعيداً عن هذه المياسم المكررة ، وان كان في

---

١ – (ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب) ص ١٠٣ – ١٠٥ .

قصيدته التي قالها في (فتاة الجامعة) قد مالَ الى هذا الضرب حين وصف الاسنان واللفتات والتثني والخطى . أما في قصيدته التي سمّاها (معين الجمال) فضرب آخر في الغزل والوصف منبعث من دفع الكلمات ، نحو أجواء فنّية ، فالشاعرُ بعد مناجاة المحبوبة يصف صحبتها في الرياض وفوق التعاشيب وبين الرياحين ، فيرى نفسه في حديقة زاهرة يتناول اقحواناً نديّاً كأنه اللؤلؤ ، ثم يأخذ به المتسائلون عما وراء القدر ، فينتزع اوراق الزهرة : ورقةً ، ورقةً ، ليتحرّى شكّه فيها ويقينه ، فاذا لاءَمت مناه تفاءَلَ ... والاّ ساءَت فيها ظنونه .

وفي هذه السلوى كان العزاء لنفسه الظمأى الحائرة ، وقد سرى في شعوره لحن شرود من هذه الأزهار ، مزج بينها وبين المحبوبة ، وها هنا نحسّ انجذاب الشاعر الى روحانية الفن حيث يلقى احلامه وهواه .

ما أشبه هذه الألحان في قصيدة (معين الجمال) بانغام تدور في خاطري من (نشيد الأنشاد) لسليمان الحكيم ، إذ تتلاحق المعاني الروحية وتندمج في تضاعيف الفنّ فتمزج بين الانسان الفاني وبين الخلود الذي ينشده في حياته وبعد مماته .

فطوقان يطوف بين الأزهار ليتنسّم فيها شذا المحبوبة ، فاذا رأى قطرات الندى قال انها : دمعه الذي كان ريّاً لروحه من غليل الأسى ، ويتخيّلُ الشاعر طوقان أحلامه وغرامه فيسير وراء رؤاه في الدياجي على أنين الذكريات ، ويرى المحبوب وهو (معين الجمال) فيناديه ويناجيه بصبابة وابتهال ، وكأنه الشاعر الفرنسي (الفريد دو موسيه) يخاطب معشوقته بقصائد الليالي الأربع ، حتى يداخله وهمٌ يروعه فيصرخ مذعوراً . وحين تجسّمَ لطوقان مثل هذا الخيال في سكون الليل الطويل راعه أمره فنبّه من حوله بصرخة في السكون .

لقد مرّ (الفريد دو موسيه) بهذه الخيالات والأوهام فصوّرها في شعره

الأول تصويراً رائعاً ، وبمثل هذا نحسّ في شعر طوقان وهو يتغنّى بـ (مصدر الجمال) عنده فيناغي محبوبته حتى استحالت ذكراها خيالاً سرى فيه فأذكى شجونه . وقد ضمّه ثم ردّه وغاب في الدجى كما غاب أنين الشاعر . ولما راعه شأنه وصرخ من فزعه ،سأله من حوله عما دهاه فتناوم حتى انجلى الليل عن صباح مبين . فاذا الطبيعة تستقبله بنورها وطيرها والنسيم يداعب الدوح فوجد فيها الشاعر أنسه ومعينه ، واستطلع جمال المحبوبة فيما أبدعته فنونها من ماء العين ، واغرودة الطير ، ونفحات الورد والريحان . وكل هذه الألحان الطبيعية كانت تزيد الشاعر استغراقاً في الجمال وحنيناً الى من تمثّل في نظره وشعوره ، فصوّره في ألفاظ موسيقية عذبة ، وألوان ينبعث منها الامتاع والإبداع .

وقصيدة طوقان التي سمّاها (معين الجمال) تعبرّ عن توهّج الحسّ ، في وجدان الشاعر ، وانطلاق الخيال في الفاظ طلقة التعبير !

وخاطب ابراهيم (م.ص) الغادة التي أذّله حبّها ، فغدا نضوَهمّ وداءٍ وسهاد، بقوله :

أسعديني بزورةٍ أو عديني   طال عهدي بلوعتي وحنيني
أدّعي الهجرَ كاذباً وغرامي   في قرارٍ من الفؤاد مكينِ
غيضَ دمعي وكان ريّاً لروحي   من غليل الأسى فمن يرويني ?!
يا معين الجمال ، قطرة ماءٍ   أو افيضي ابتسامة تحييني

. . .

ضجعتي في الرياض بين الريا   حين قريباً من ماءِ عينٍ معينِ
فتناولتُ أقحواناً نديّاً   ونداه كاللؤلؤ المكنونِ !
ونزعتُ الأوراقَ عنها تباعاً   أتحرّى شكّي بها ويقيني !

فإذا وافقت مُنايَ تفاءَلتُ وإلاّ كذّبتُ فيها ظنوني !
ذاكَ لهوٌ فيه العزاءُ لنفسي فاضحكي من تعلّلي وجنوني!

. . .

طفتُ بين الازهار،والنشر من نشرك فيها ودقّة التكوين
قطرات الندى عليها دموعي أنتِ أدرى منّي بما يبكيني!
انتقي طاقةً وذوقك يهديني الى الرائعـاتِ في التلوين !
يا حياة القلوب ويلي عليهـا ذبُلَتْ من بقائها في يميني !
فخذيها عسى تُردّ اليها الروح اني أخافُ مرأى المنونِ .

. . .

ما أشدّ الهوى،وما أطولَ الليلَ وما أبعد الكرى عن جفوني!
رُبّ ذكرى ـ وماهجعتُ ـ استحالتْ لخيالٍ سرى فأذكى شجوني!
ضمني ثم ردّني وتـــلاشى في الدياجي كما تلاشى أنيني !
راعه أمره فنبهّتُ مَنْ حـوليَ ذُعراً بصرخة في السكونِ !
سألوني فلم أُجبْ ، بل تناومتُ فنـاموا ، وللأسى خلّفوني !

. . .

مرحباً بالحياةِ عادَ صداها وانجلى الليلُ عن صباح مبينٍ !
سفراءُالصباحِ: (نورٌ)و(طيرٌ) تتغنى في مائساتِ الغصونِ
و(نسيمٌ) يداعبُ الدوحَ، والا بحر شجيٌّ الغناءِ عذبُ المجونِ

و(جلالُ) الوديان ملءُ الحنايا و(جمالُ) الجبال ملءُ العيونِ
في اخضرارٍ كأنّه أملي فيكِ ، وثلجٍ نقــاؤه كالجبينِ !

. . .

إنّما هذه الطبيعةُ أُنسي ومُعيني إنْ لم أجدْ من مُعينِ !
أتقرّى جمال ذاتكِ في ما أبدعته يمينهــا من فنونِ
في الغدير الصافي، وأنشودة الطير، وطيب الورود والياسمينِ
غير اني ما ازددتُ إلاّ حنيناً أسعديني بزورة أو عـديني !

غادة اشبيلية: ورغم أن (م.ص) عبثت بقلب ابراهيم وزادته ضراماً لاعجاً، غير أن حبها لم يسدّ عليه سبيل الهوى والغرام ، اذ هـام برعيل لجب من الغواني الفاتنات وفي طليعتهنّ (مرغريتا) الاسبانية ودونك قصتها :

يوم كان ابراهيم استاذاً في الجامعة الاميركية ببيروت عام ١٩٣٠ كان يتردّد على (مقهى النجـار) الواقع في (ساحة البرج) ، وكان هذا المقهى ملتقى أهل القلم في ذلك العهد ، وعلى رأسهم : الأخطل الصغير ، أمين تقي الدين ، الدكتور نقولا فياض ، أديب مظهر ، سعيد وخليل تقي الدين ، ابراهيم طوقان ، عمر فروخ ، الياس أبو شبكة ، ميشال زكور واخوان هذا الطراز العالي !

قدرٌ يلهو : « وأراد [١] القدر أن يجرّ الشاعر طوقان الى مهوى غرام حين جاءَت مطعم النجار في بيروت راقصة اسبانية من اشبيلية ، وسرعـان ما استطاع طوقان بواسطة من المستشرق « نيكل » أن يتصلَ بالراقصة اذ كانا يحققّان معاً

---

١ – (ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب) ص – ١١٩

في كتاب عربي قديم لينشراه » .

من هو الدكتور نيكل ؟ : « ولد المستشرق « نيكل »[1] عام ١٨٨٥ في بوهيمية ، احدى المقاطعات التي نشأت منها جمهورية تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وفي عام ١٩١٦ تخرج من جامعة شيكاغو برتبة دكتور في الفلسفة ، ومنذ ذلك الحين استقر نهائياً في الولايات المتحدة .

والدكتور نيكل متوفر على دراسة الاداب العربية ودراسة الصلة بين الموشحات الاندلسية ونشأة الشعر البرو فنسالي[2] . وقد زار الدكتور نيكل العالم كلّه وقضى مدداً مختلفة متفرقة في المغرب ومصر ولبنان وسورية . وهو كاتب خصيب فياض القريحة ، يجيد لغات متعددة منها : التشيكية ، الفرنسية ، الانكليزية ، الالمانية ، الاسبانية ، العربية ، اليابانية ، وهو يقرأ ويتحدّث ويكتب بهذه اللغات . وللدكتور نيكل[3] اهتمام بالاسلام وبالدراسات الاسلامية ، وقد نقل القرآن الكريم الى اللغة التشيكية فطبع مرتين عام ١٩٣٤ و ١٩٣٨ .

كتاب الزهرة: « واثناء[4] اقامة ابراهيم في بيروت تعرف بالدكتور لويس نيكل البوهيمي وهو مستشرق متخصص في الغزل العربي ، فكان يتنقل بين عواصم الشرق والغرب ، باحثاً في مكتباتها الكبرى عن الكتب المتعلقة بموضوعه ، وكان حين تعرف بابراهيم على نية الشروع في كتاب تصحيح كتاب (الزهرة) لابن داود الاصفهاني وتعليق حواشيه وتنظيم فهارسه . ولما اطلع ابراهيم على النسخة الفوتوغرافية للكتاب لمح اخطاء نسخية هنا ... وهناك .. فأخذ ينبّه الدكتور نيكل الى صحيحها أو يرده الى مرجع ضبطها وقد كان ابراهيم المحفوظ ، مطلعاً اطلاعاً واسعاً على الشعر القديم ، مدمناً قراءة عيون كتب الأدب العربي

---

١ - (شاعران معاصران) ص - ٤٠ - ٤١

٢ - شعر شعراء التروبادور في جنوبي فرنسا .

٣ - اختار له اسماً عربياً هو : (عبد الرحمن نيكل - A.R. NYKL)

٤ - (أخي ابراهيم) ص ٤٩ - ٥٠

فلم تمض بضع دقائق حتى دعاه هذا المستشرق الى العمل معه في تصحيح الكتاب واخراجه باسميهما معاً ، وباشر العمل في اليوم الثاني وفي بضعة أشهر أنجزا عملهما».

وبحكم تردد ابراهيم على (مقهى النجار) وعمله هناك مع الدكتور نيكل في تصحيح كتاب (الزهرة) [1] هبطت بيروت راقصة اشبيلية اسمها (مرغريتـــا) وأحيت ليالي حمراء صفق لها عشاق الطرب ، وسمار الليل .

« وتدلـّه [2] ابراهيم بهذه الصبية الصغيرة الحسناء التي كانت تـُمثـّل الجمال الأندلسي تمثيلاً صادقاً ، وكان ابراهيم يتطلع اليها وهي ترقص مأخوذاً وسكران من غير خمرة . »

وسرعان [3] ما استطاع طوقان بواسطة المستشرق نيكل أن يتصل بالراقصة التي منذ عرفته شاعراً أنِسَتْ بـــه وتقرّبتْ اليه ، فكانا يتلاقيان كثيراً ويجتمعان . وكانت لطوقان ساعات نشوة فنية ونفسية كلما رأى الغـانية على المسرح البيروتي صافقةً بأناملها بيد مرتفعة ، ويد منحدرة ، ضاربة بالقدمين ، رافعة الرأس ، وعلى قفا شعرها المشط العريض ، تهز منكبيها وجسمهـــا هزات الرقصات الاندلسية واولع بها . »

ويبدو[4] ان مرغريتا أصيبت من قبل في قلبها فخانهـا من أحبتـــه، فكان يسرها ان ترى معجباً بها مخلصاً ، لذلك كانت تخصهُ – وهي تقوم برقصاتها –

---

١ - نشرت هذا الكتاب جامعة شيكاغو وتولت طبعه (المطبعة الكاثوليكية) في بيروت.

٢ – (شاعران معاصران) ص ٤١ .

٣ – (ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب) ص ١١٩ .

٤ – وصف ذلك الهيام المستشرق نيكل في رسالة بعث بها الى الشاعرة (فدوى طوقان) شقيقة ابراهيم ، وقد ارسلها من كامبردج عام ١٩٤٧ بعد موت ابراهيم ومنها قوله : « وكانت الراقصة الاندلسية مولعة بابراهيم ، أما هو فكان مولعاً بها الى غاية الهيام ! » .

باشارات من مروحتها ، مقرونة بكلمات تدل على انها تبادله اخلاصاً باخلاص .»

وفي هذه الغادة اللعوب نظم ابراهيم طائفة من قصائد الغزل ، معترفاً بانجذابه اليها ، مصوراً تدلهه بها ، ومن غزلياته قوله :

أفدي بروحي غيدَ اشبيليه · وإن أذقن القلب صاب العذاب .
علقتُ منهن بترب النهار · وجهاً ، وصنو الليل فرعاً وعين .
في مثلها يخلع مثلي العذار · ولا يبالي كيف أمسى وأين ؟.
أشرب من فيها وكأس العُقار · معاً ، فكيف الصحو من سكرتين ؟
لهفي عليها يوم شطّ المزار · وساقها البين الى (النير بين) .

*

ودعتها ومهجتي مشفيه · لم يشفني رشف الثنايا العذاب
وودعت بالنظرة المغريه · تصحب لبّي معها في الركاب .

*

يا أعصرَ الأندلسِ الخاليات · قد فاز من عاش بتلك الربوع
أهكذا كانت هناك الحياة · مترفة الأيام ملء الضلوع ؟!
أهكذا الفتنةُ في الغانيات · ونشوةُ الوصل، وحرّ الولوع؟!
لئن مضى عهدُ ذوينا وفات · ولم يَعُدْ من أملٍ في الرجوع !

وشبّه ابراهيم نفسه بالشاعر (ابن زيدون) وتمثّل الغانيةَ الأندلسيةَ تصبو اليه وكأنها (ولادّة بنت المستكفي) الهائمة بشاعرها ، وودّ لو يردّ ما في الحياة في تلك الربوع الوارفة ببذل الشباب :

فذِمّتي بعهدهم موفيهْ أردّ ماضيهم ببذل الشباب
أنا (ابنُ زيدون) وتصبو له (ولاّدةٌ) في دمها والإهابْ

. . .

أولُ عهدي بفنونِ الهوى (بيروت)أنعمْ بالهوى الأولِ!
وقيلَ : هل يرشدُ قلبٌ غوى والرشدُ غيٌ في الصبا المقبلِ؟!

مددتُ–لما قلت قلبي ارتوى – يـــدي فردّته عن المنهلِ ؟
(بيروت)لوشئتِ دفعتِ النوى طوعاً،ولم اهجرك، فالويل لي!

. . .

في ذمّتي الله منىً مؤدِّيهْ باسقةٌ خضراء لدْنٌ رطاب !
لعـلّ في اختـك يا سوريهْ حسنَ عزاءٍ،عن جليل المصاب

. . .

يلذّ لي يا عين أن تسهدي وتشتري الصفوَ بطيبِ الكرى
لي (رقدة طويلة) في غدِ للهِ ما أعمقهـا في الثرى !
ألمْ تريْ طيرَ الصبا في يدي أخشى مع الغفلة أن ينفرا
طالَ جناحـاه وقد نهتدي إلى أعالي دوحـه مبكرا

. . .

أرى الثلاثين ستعدو بيــهْ مغيرة أفراسها في اقترابْ

وبعد عشرٍ يلتوي عوديهْ وينضُبُ الزيتُ ويخبو الشهابْ![1]

وكأني بابراهيم قد وطدّ العزم على زيارة الأندلس ليتملـّى روائع المجد العربي المغصوب ، والعز التالد المسلوب :

لا ُبـدّ لي أن أعطفـا على رُبى الأندلسِ الناضره!
واجتـلي أشباح عهـد الصفا راقصةً ، فتـّانةً ، ساحره !
هناك لا أملكُ أنْ أذرفـا دمعي على أيامنا الغابره !
عساك يا دمعَ ُمحبٍ وفي تردّ جنات المنى زاهره !

وليجتلي ابراهيم محاسن غادة اشبيلية ومفاتنها في موطنها الأول، وليزجيها ُمرّ العتاب أقدم على تعلـّم الاسبانية ، وصوّر هذه الأمنية الغالية بقوله :

يومئذ القي على عوديهْ لحنَ الهوى أمزُجهُ بالعتـابْ
أفدي بروحي غيدَ اشبيليهْ وإنْ أذقنَ القلبَ صابَ العذاب!

وذات ليلة َعلـَتْ (مرغوريتا) الحسناءُ خشبة المسرح في (مقهى النجّـار) ببيروت وأخذت ترقص رقصاً فنيّاً استثار اعجاب ابراهيم وشرعتُ تصفـّق بأناملها وتهزّ منكبيها وجسمها هزات الرقص الأندلسي المغري ، على ألحان عازفهـا ، فانتشى الشاعر بخمرة الحسناء اللعوب ، وفي متـأخر من الليل أخذ (طوقان) و (مرغوريتا) يعبثان كؤوس المدام ، فنظم ابراهيم من فوره مقطوعة بعنوان : (اشربي) :

---

١ - لحق ابراهيم بربه قبل ان يتم الأربعين.

اشربي أنتِ وحسبي (نشوة)من مقلتيكِ
اشربي أنتِ وحسبي (نظرة)في وجنتيكِ
اشربي أنتِ وحسبي (نهلة) من شفتيكِ
اشربي أنتِ ومالي وحياتي في يديكِ!

. . .

نقلَ الكأسُ حديثاً عن ثناياكِ العذابِ
إنه لولا شذاها لم يكن لذّ وطاب!
لم يكن يسكرُ لولا انه مسّ الرُضاب!
اشربي أنتِ وحدّث أنتَ عنها ياشراب!

. . .

انشديني ، أطربيني بهوى الأندلسِ
ارسلي اللحنَ شجياً كالصبا في الغلَسِ
هو يا روحي لروحي كالندى للنرجسِ
إنّ انفاسك فيه لحياةُ الأنفسِ !

« ولو رأى ابراهيم اشبيلية[1] موطن الغانية ورفع الطرف الى مئذنتها الاسلامية التي ما زالت حتى اليوم بشكلها المربع المزخرف ، ومشى في الدروب القديمة التي تدق فيها اقواس عربية من الحجارة وابواب عتيقة بالية ، لأنساه هوى العروبة والمجد غرام الحبيبة ، ولجاد للشعر العربي المعاصر بغرر من أطيب بيانه في ذكر الايام الغابرة ووصف الخيول الأصيلة

---

١ – « ابراهيم طوقان : شاعر الوطن المغصوب » ص–١٢١

العربية ،والخيول الاصيلة التي كانت في هاتيك الديار، بل لأخذ يقبّل جدران الحمراء والزهراء،ويقف على ضفاف وادي يافا والوادي الكبير ليرى بقايا الطواحين الاندلسية التي كانت تدور ، ولترصد الدوائر ، ثم لسكب تلك الذكرى بشعره العذب الرصين اناشيد في أدبنا الحاضر ،بعث فيها المجد المفقود وحرض على الكفاح لاستعادته ! »

ولم يقف ابراهيم عند هذا الحدّ من الأماني والذكريات ، بل زوّد يوماً الفنان المرحوم مصطفى فروّخ بصورة مصغرة لحسنائه (مرغريتا) وسأله أن يكبرّها بالالوان المائية ، فحقّق فروخ هذه الامنية الغالية على شاعرنا ، وكبر (الصورة) وبعث بها الى طوقان ، وبعد ان تملى من قسماتها الحلوة نظم قصيدة بعنوان (الصورة المكبرة) فكانت من أرق غزلياته :

برّح بي الشوق فلما طغى فزعتُ للرسم فكبّرتُه
وما شفى داءً... ولكنّما قلبي شكا البعدَ فعلّلتُه
ولم أجدْ في الرسمِ أخلاقها جرّبتها حيناً وجرّبته
منتظري في غرفتي دهره : جودُ بخيل ما تعوّدتُه
ظلّ وقد ناجيتُه باسماً ولم يمانع حين قبّلتُه !

واعترف ابراهيم للرسام (فرّوخ) بالابداع الذي بلغته ريشته الساحرة وبالتحليق الذي أصابه في (الصورة المكبّرة) ... لكنّه أخذ عليه أموراً ليس في طوق (فروخ) أو أي فنان تحقيقها ... كما تمنى الشاعر...أي : تصوير اخلاق المحبوبة التي جرّبها ابراهيم :

عرفتُ للرّسام ابداعه وعدتُ للرسم فأنكرتُه

لماذا ؟

قَد فاته « دلّ » تعرّفتهُ فيها و « مطلٌ » كم تذوقتُهُ !
لوجاءَني الرّسامُ بـ (المشتهى) كفرتُ بالله وأشركتُـهُ !!

وفي يوم من عام ١٩٣٢ جاء ابراهيم من نابلس الى القدس لزيارة صديقه الشاعر (أبي سلمى) واعتمرَ غرفته فلم يجده فيها فتولاه غم شديـــد وفتح كتـــاب (الأغاني) وكتبَ على احدى حواشيه هذه الأبيات برسم صديقه (أبي سلمى) :

أخي المقـدّرُ أني أحومُ دهري عليكا !
« هريتُ » نعلـيَ هلاّ أعرتني نعليـكا ?
أدعو عليكَ بـ (حسناءَ) لا تحنُّ اليكا !
لئن لقيتك فاعـلمْ (...) دينكَ (...) !

وبعد أن بارح ابراهيم الغرفة لقي (أبا سلمى) في (مقهى فينـّا) بالقدس وخرجا معاً الى شارع مأمن الله ، واذ بهما يلتقيان على حين غرّة بحسناء كفركنة (م. ص.) بعد زواجها، وهنا ترك (أبو سلمى) ابراهيم ليغذي صباباته وعواطفه المتأججة بلقاء الحبيب الأول ... فسار ابراهيم معها يحييان ذكريات حبّ دفين ، وبعد أن ودّعها بحرارة ولهفة عاد الى (أبي سلمى) فرحاً جذلاً ودخلا مقهىً بلدياً وكتب ابراهيم على الفور :

ان (عبد الكريم[1]) ردّ حياتيـ ـن بلقيا ضنّتْ بهـا الأيامُ
انّه في فِعالهِ مثلُ (عيسى) أين منه (عيسى) عليه السلامُ !
يا رسولَ الهوى صحابتك العشا قُ طراً وحزبُكَ الآرامُ !
شيعةٌ لو حشدتَ يوماً تراها هلكَ العـاذلون واللوّامُ !

---

١ - (أبو سلمى) .

البلبل الصريع : « ومنذ [1] أواسط عام ١٩٣٢ بدأ ابراهيم ينظم مشهد (البلبل الصريع) وهو مشهد مستوحى من احدى رقصات (مرغريتا) ومن قصيدة (البلبل والوردة) للشاعر الانكليزي (اوسكار [2] وايلد) وهذا المشهد يمثّلُ شاباً ساذجاً يدخل المدن موفوراً صحة وثروة وأملاً بالمستقبل ، فينزلق في مزالق اللهو ، فيخسر صحته ، وماله ومستقبله ، فالشاب يمثّل (البلبل) والوردة ترمز الى (بائعة اللهو والعبث) والروض رمز (للحانة والملهى) ، اما مطلع هذا المشهد فهو :

قدرٌ ساقَهُ فآواه روضاً — لم يكن طارَ فيه وغنّى !

ومن أقسام هذا المشهد :

صارت الوردةُ الخليعة للبلـ — ـبل ِ همّاً ومأرباً يشقيه ِ !
حسرتا للغرير ِ أصبح كرباً — ما يلاقيه من دلال ٍ وتيه ِ !
شفّهُ السُهدُ فاعتراه منالحبّ ِ — سَقامٌ مُبرِّحٌ يضنيـــه ِ !
مَنْ رآها وقد تحاملَ يهفو — نحوها كيف أعرضتْ تغريه ِ !
مَنْ رأى روحه تسيلُ نشيداً — لاهباً لوعة الأسى تذكيه ِ !
هي (حواءُ)ذلك الخلد فاحذرْ — لا تكوننّ أنت (آدمُ) فيه ِ !
لا تهبْ قلبك الكريم لئيماً — تحتَ رجليه عابثـــاً يُلقيه ِ !

وينتهي مشهد (البلبل الصريع) بالمقطع التالي :

---

١ – « شاعران معاصران » ص ٩٦ .
٢ – كاتب وشاعر انكليزي « ١٨٧٦ – ١٩٠٠ » .

ضمّها الطيرُ مُطبقاً بجناحيـ ـهِ وهمّتْ بثغرِه شفتاها !
لم يُمتّعْ بنشوة الحبّ حتى أشرعتْ شوكةً تلظّى شباهـا
أوردتها قلباً إذا رفّ يوماً خافقاً للهوى فذاك هواها
كرعتْ في الدمِ البريءِ فلمّا عكسته وهّاجةً وجنتاها
نظر الطيرَ نظرةً أعقبتها روحه طيّ شهقة معناها :
(دورةٌ) تبهرَ العيون ولكنْ
(كثرةَ الشمِّ) قد أضاعت (شذاها) !

فوز المصطافة : وهامَ ابراهيم بمصطافة حسناء اسمها (فوز) ، لقيهـا في مصيف بحمدون (لبنان) وكان يحظى بها في يومه ثلاث مراتٍ ، ومضت فترة طويلة و (فوز) طريحة الفراش ، وبعد ان عاودتها العافية وزايلت فراش الداء أخذ ابراهيم يلتقيها في طريقه ذاهباً آيباً ، واخيراً أوحتْ له هـذه الصدفَ المستحبّةَ بالمقطوعة التالية :

يا (فوز) ويلي منك يا قاسيهْ عذّبْتِني ظلماً ، كفى ما بيهْ
أراكِ في اليوم ثلاثاً ولا أنال إلاّ النظرة الجافيهْ
واللهِ لو تدرين ما (قصّتي) ما كنتِ عن حالي إذنْ راضيهْ !
بل كنتِ لي (عوناً) على غُربتي وكنتِ لي راحمةً آسيهْ !
مرضتِ أياماً فلم تطلعي ظللتُ فيها مهجتي داميهْ !
اسألُ عنكِ الناسَ مستخبراً ولهانَ أدعو لكِ بالعافيهْ !
حتى اذا أبللتِ يا منيتي خفّفَ عنّي اللهُ بلوائيه
بشراكَ يا قلبي فقد أصبحتْ تغدو الى ملعبها ثانيه !

(مليكة) ما بين أترابهـــا ! يا ليتني كنتُ مع (الحاشيه)!
يا (وردة) ترسلُ أنوارهـا فيضاً على الكونِ من الرابيه!
يا ربّةَ المنديلِ من تحتـــه نبعةُ حُسنٍ ثرّةٌ صافيه.
ناشدتُكِ (الاسلامَ) لا تقتلي أخاكِ في الاسلامِ يا قاسيه.

الممرضة لولي : وفي بيروت تعلّق ابراهيم بحب فتاة في ثياب الممرضات اسمها (لولي) وكانت رائدة لأولاد الجرّاح الأسبق في مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت الدكتور Kruk shank ، وما التقى ابراهيم وهذه الحسنـاء يوماً في احد الازقـة أو الشوارع حتى يعروهما احمرار الوجهـــين ثم الاطراق ... وأخيراً لا يضبط احدهما نفسه عن الضحك عند اللقاء حتى تفادى كلٌّ منهما لقاءَ الآخر ! فصوّر ابراهيم هذا المشهد الغريب بقوله :

تعلّقها قلبي ... ولم أدرِ ما اسمها ! وفي عينها ما بي، وما سمعتْ باسمي !
وما كان إلا في الطريقِ لقاؤنا ولحظ – كباقي الناس – يرمي ولا يصمي
أما عجبٌ، والأرضُ ملأى بمثلها هُيامي بها دون الحسانِ على رغمي !
وما بالها لم تحمل الوجد والهوى لغيري له روحي، ولم يُعده جسمي !
أراهـا فلم أملك تهالكَ واهنٍ يجنبي مسلوب الجراءة والعزمِ
فيخطف (لولي) فرط ما أنا واجدٌ بها وبما يلقي هواهـــا على وهمي
يخيَّل لي أني دنوت فأعرضتْ فاصرف وجهي مثقلَ الصدر بالغمّ
ظننت بها سوءاً ولم تجنِ بعدما يظنّ به ، ما أشبهَ الظنّ بالاثمِ
ويعربُ عن سرّ الضلوع شحوبها اذا ما تلاقينا فبئسَ اذاً زعمي .
وأقسمُ لو حدثتُها وتكشّفتْ سرائرنا ما شذّ عن همّها همّي.
هوىً ألفتْ شتى القلوب (يمينه) وكم قطعتْ (يسراه) من صلة الرحمِ.
إذا كان في دنيا الهوى مثلما أرى فأي عجيب في هوى العمي والصمّ ؟.

وزيّنَ الخيال الخصب لشاعرنا الملهم ان احدى الغيد دلفت ليلاً الى مخدعه خلسةً ... فصوّر ابراهيم لقيا الحبيبين بقوله :

قامتْ اليَّ على خوفٍ تكلمني ... ملهوفةً وتُسرُّ القولَ في أذُني .
فمسّني شعرها في الخدّ فانسربتْ ... في رعدة منه عَمَّت سائر البدنِ
ما وحشة الليل والأكوانُ ساكنةٌ ... غرقى المحاجر في بحر من الوسنِ
أبيتُ سهرانَ ريّانَ الدموع به ... طاوي الضلوع على مستبسلِ الحزنِ
كلا ولا البحرُ يعلوه الشحوب لدى ... نعيبه كشحوب الوجه من شَجَنِ
ولا أشعةُ نجم حوله انبثقت ... بهنّ رجعة شيخٍ مدبر يُغنِ
كشعرها ومحيّاها اذا اعتنقا ... ومقلتاها وقلبي حين ترمقني

وفي عام ١٩٢٧ أرسل ابراهيم يسأل صديقه الدكتور (فروخاً) عن « قلوب طارت الى حلب . » فأجاب (فرّوخ) (ابراهيمَ) بقوله :

لقد طارت الى حلَبٍ ... قلوبٌ شفّها الوجدْ .

فردّ ابراهيم بقوله :

للقيا مَنْ له حسنٌ ... على الاكوانِ ممتدُّ
كنور الشمس لا تخلو ... وهادٌ منه أو نجدُ .
للقيا من بدَت أنفا - ... سهُ الريحانُ والندُّ
لقد عبقت فان بعُدَتْ ... يزدْ في طيبها البعدُ
للقيا من بدت (بركاته) الهجرانُ والصدُّ .

أم كلثوم : وفي نيسان ١٩٣١ نظم ابراهيم قصيدة مطولة في تحية مصر كان مطلعها :

تحيـة لكِ يا مصرَ الفراعينِ ذوي المآثرِ من حيٍّ ومدفونِ

وفي هذه القصيدة الرائعة ، التي مرَّ ذكرها في القسم الأول من هذا الكتاب ، تخلَّصَ ابراهيم الى ذكر شارع الازبكية وحديقتها الشهيرة وكروان الشرق السيدة أم كلثوم إذ قال :

و (الازبكية) في الامساءِ راقصةٌ لهـا غلائلُ من شتَّى الرياحينِ
والنور ذو لحظات في خمائلها كأنها لحظـاتُ النهّدِ العينِ
مـا لي وللسقمِ أخشاه واسألُ عن طبيبه و (عماد الدين) يشفيني ؟ .
لو أنشَبَ الموتُ بي أظفارَه لكفى بـ (أمّ كلثوم) أن تشدو فتحييني .

قيصورة الحسن : وذات يوم لقي ابراهيم في احدى عيادات الاطباء بنابلس بمرضة روسية حسناء ، درجت على حقنه بإبرٍ تساعده على إزالة القرحة التي كانت أصل دائه ، ورأس بلائه ، فسحرته العينان الزرقاوان ، وفتنته الاهداب الجانية ، فنظم ابراهيم مقطوعة نشرتهـا جريدة (فلسطين) اليافية في عدد اسبوعي مصوّر :

يا حلوةَ العينين يا قاسيهْ سرعانَ ما أصبحتِ لي ناسيهْ
أما أنا فلستُ أنسى يـداً ناعمةً تجودُ بـ (العافيهْ) !
لئن شفى الطبُّ ضنىً عارضاً فمهجتي أنتِ لها شافيهْ
و (إبرةُ الآسي) على نفعهـا أفعلُ منهـا نظرةٌ ساجيه
تبعثهـا عينـاكِ في أضلعي فيّاضةً بعطفهـا آسيهْ
تلأمُ قلباً نكأتْ جرحَهُ فعادَ يهوى مرةً ثانيه !
وتطفىء النار التي حركت فأرجعتهـا زفرةً حاميهْ

. . .

(قيصرةَ الحسنِ) ألا اشتكي اليكِ من جوركِ يا طاغيهْ .
هلْ كان نسيانُكِ لي (هفوةٌ) أم (خطّةٌ) اشراكها خافيهْ ؟!
سيدتي ! ذنبك مهما يكنْ تغفره اعذارُكِ الواهيه ... !

وكلما حاول ابراهيم ان يتناسى (م . ص) أوّل فتاة أذلّه حسنها ، تفتّح قلبه على ذكريات هواها ، وصوّرها بريشته الساحرة البارعة غافية على سريرها :

ما كنت أرغبُ أن أمسّى قاسياً فأنفرّ الاحلام من عينيها .
والشوق يدفعني الى ايقاظها ويدي تحاذر أن تمدّ اليها .

وبلغ ابراهيم حدّ الابداع في قدرته على تصوير صراع قائم في نفسه ، بين أمانيه الجامحة وبين حفاظه وتأدبه ... واخيراً أفضى به ذلك الصراع الى الهزيمة ... فوقع مخموراً على محجة أمانيه ، مشدوهاً على ثغرها العذب المعسول :

وكأنما شعر الرقادُ بنعمةٍ فأقام غير مفارقٍ جفنيها !
ويلٌ لقلبي، كيف لم يفتك به مرأى تقلّبها على جنبيها !
وتنهّدتْ مما تكنُّ ضلوعُها يا شوقُ ويحكَ لا تَرعْ نهديها !
حسبي جوىً اني نظرتُ لشعرها ينكبُّ مرتشفاً ندى خدّيها
وأغارُ منه اذا اطمأنّ بها الكرى ويثيرني متوسداً زنديها !

. . .

أرنو بلهفةِ عاشقٍ لم يبقَ من صبر لديّ ، وقد حنوتُ عليها

فيصدّني أدبي فأبعد هيبةً وأودّ لو أجثو على قدميها !
فالنفسُ بين تهيّب مما ترى وتلهّب ، فاحترتُ في أمريها
ولعلّ أشواقي بلغنَ بيَ المدى فوقعتُ .. لا أصحو على شفتيها !

وأبعد من هذا مجوناً وعبثاً وخيالاً .. أبيات أنشدها ابراهيم في (م.ص) تلك الحسناء التي لم يسلُ الشاعر عهدها ، أو يتناسَ ودّها :

لم ألقَ بين ليالي التي سلفتْ كليلة بتُّها في دير قديس
ضمتْ حسناءَ لم يُخلق لها مثلٌ بين الحسانِ ولا حور الفراديسِ
ما عرشُ (بلقيس) في إبان دولتها ولا (سليمان) مزفوفاً لـِ (بلقيسِ)
يوماً بأعظم منا في السرير وقد دام العناقُ الى قرع النواقيس !

وكانت لابراهيم جارة فلاحة في رام الله اسمها (بهاء) وكانت على جانب من الجمال فنظم فيها طوقان قوله :

(بَهَا) يا جنّة الحسنِ ويا كوثره الصافي !
ويا أفضل بين الغيـ ـدِ من عشرةِ آلافِ !
فديتكِ حُقّ للهمز ةِ ان توضعَ في الكافِ !

وذات يوم مرّ غزال (جُلقيّ) بابراهيم ، وكان في عمر الورود ، فبهره النهدان النافجان ، وسحره الطرفان الناعسان ، ومن توّه خفّ الى نُطس الاطباءِ يستشيرهم في (قلبه) المعذب (الخافق) القلق بقوله :

لم تدرِ ماذا قد أصابَ قلبي . أصابه بعضُ شواظ الحبّ
رمتْه عن بُعدٍ معاً وقربِ احدى غواني (جُلّقٍ) وحسبي
فراحَ خفّاقاً شديدَ الضربِ ينذرُ بالويلِ وطول الكربِ

فجئتُ استشيرُ (أهلَ الطبِّ)	ان شاءَ يذكي ناره أو يخبي

بين أوراق ابراهيم التي عثرتُ عليها في مكتبة الجامعة الاميركية ببيروت ، دفتر طواه على قطع شعرية أطلق عليها : (الشرارة الاولى ، الشرارة الثانية ، الشرارة الثالثة) الخ ... وبعض هذه (الشرارات) نظمها ابراهيم بالاشتراك مع صديقه الطبيب الشاعر الدكتور وجيه بارودي (حماه) ، وهذه (الشرارات) تنقسم الى قسمين :

الأول : في الغزل المذكّر .

الثاني : في الغزل المؤنّث .

وبعض مقطوعات الغزل المؤنث قيلتْ في نفر من طالبات الجامعة الاميركية في بيروت وخارجها ، « واستقلّ [1] الدكتور بارودي وحده بأربع قطع من الغزل المذكّر ما زال زملاؤه في عهد الجامعة يرددون أبياتها و (الشرارة الخامسة) اشترك في نظمها : ابراهيم طوقان ووجيه بارودي وغالب عرفات » .

وفي أعقاب عام ١٩٣٢ لم يلبث ابراهيم ان سَلَكَ سبيل الهوى والكأس ، فذكر ذلك في قطعة عنوانها (مغامرة) :

رُبَّ يوم كأنما كرع البحر	فغطّى السماءَ بالمعصرات [2]
يتزاحمن في الفضاءِ الهوينا	مسبلات الذيول منهمراتِ
جمّدَ القرُّ معشرالطير حتى	بكمتْ في الوكون مرتكماتِ [3]

---

١ – « شاعران معاصران » ص ١٠٠ و ١٠١ .

٢ – السحب .

٣ – مجتمعات .

عصفَ الشوقُ بومذاك بأضـ ـلاعي فأزرى بثورة العاصفاتِ
لم يزلْ بي حتى تجشمّتُ هول السير عدواً الى الحبيب المؤاتي
أتقرّى بين الهضابِ طريقي مستنيراً مقادح الزفراتِ
أترَعت لي كأسَ المدام وقالت: هـاك ، لا ترفضنَّ بحياتي !
قلتُ : منها اشربي قليلاً فلما مزجتها بريقها ، قلتُ : هاتي !

وشأن ابراهيم ، شاعراً ، شأن كل شاعر صريع قدّ وخدّ ، لم يقف عند هوى واحدة .. أو اثنتين .. ممّن عرفهنّ ابان صداحه وشدوه وتنغيمه في دنيـا الهوى الحالم ، لقد أرسلَ ابراهيم غزلاً رقيقاً بكل برهرهة خود ، وشبّبَ بكل ظبي نافر ، حتى بات مؤرخ أدبه في حيرة من حصر كواعبه ، وتعداد صواحبه ،فيوماً يخاطب التي هام بها قلبه ولم يدرِ (ما اسمها ؟) بقوله :

تعلقها قلبي ولم أدرِ (ما اسمها) وفي عينها ما بي وما سمعت باسمي !
وما كان إلا في الطريق لقاؤنا ولحظ ـ كباقي الناس ـ يرمي ولا يُصمي !
أما عجب ـ والأرض ملأى بمثلها ـ هُيامي بها دون الحسان على رغمي !
وما بالُها لم تحمل الوجد والهوى لغيري ، له روحي ولم يعده جسمي !
أراها فلم أملك تهالك واهنٍ بجنبيّ مسلوب الجراءة والعزم
فيخطف لوني فرط ما أنا واجد بها وبما يُلقي هواهـا على وهمي
يُخيّلُ لي اني دنوتُ فاعرضتْ فاصرف وجهي مثقلَ الصدر بالغمِّ
ظننتُ بها سوءاً ولم تجنِ بعدما يُظنّ به ، ما أشبه الظن بالاثم !
ويعربُ عن سر الضلوع شحوبها إذا ما تلاقينا ، فبئس إذنْ زعمي !
وأقسم لو حدثّتها وتكشّفتْ سرائرنا ما شذ عن همّهـا همّي !

. . .

هوىً الفت شتى القلوب عينُهُ وكم قطعتْ يسراه من صلةِ الرحم.
اذا كان في دنيا الهوى مثلما أرى فأيُ عجيب في هوى العُمي والصُمّ.

ويوماً يتلفّتُ قلبه الى (صاحبة السوار) التي عرف (اسمها .) ولكنه لا يسميها ، فيكاشفها بالحب الذي خلفتْهُ نظراتها وخطاها حسراتٍ كاوية في قلبه :

هبيني لا أسمّيكِ ولا أظهرُ حبّيكِ
وُتلقى بيننا الحجبُ فأحيا لا ألاقيكِ !
هبي ما شئتِ ، انّ القلبَ ما انفكّ يناجيكِ
ويرتاح الى النجوى وفيالنجوى يُحيّيكِ
ويطغي الليلُ والشوقُ فيدعوكِ ويبكيكِ
ويستأنسُ بالصبح لما يرويه عن فيكِ .

ومرّ الشاعرُ يوماً بسرب من الغيد الحسان فاذا (القلبُ) الذي ظنّه ابراهيم شاخ وشابَ ... يتمطى ... ويتفتّح ... فيعاوده الوجيب والخفقان ، ويصفّق للثغور الباسمة ، والعيون الحالمة ، التي أثارت في قلبه ذكريات حُبّ دفين، ولواعج شوق غابر ، فينشد نفسه مهللًا جذلاً :

حسبتُ ان الشبابا ولّى حميداً وغابا
وما ظننتُ فؤادي الا اهتدى وأنابا
هيهاتَ لم يُرضِ قلبي من الهوى ما أصابا
يا نظرة لم أردها ساقتْ اليّ عذابا

*

لم أدرِ أن الزوايا يا قلبُ فيها خبايا !

رددتَ ماضي عهودي علـيَّ ، فاحمل هوايا

. . .

حسبتُ ان دموعي جفّتْ وأقوتْ ربوعي
وخلتُ نارَ فؤادي خبَتْ وراءَ ضلوعي
فأينَ وجدي وسهدي وصبوتي وولوعي ؟ !
وكان يوم الثـلاثا شهدتْ فيه العجابا

*

اليوم يوم الصبايا روافلًا بـ (الملايا)
لئن أثرن شجوني ففي الزوايا خبــايا .

. . .

لاحتْ وجوهٌ ملاحٌ خلفَ الحجابِ صباحُ
لكنْ بخلْنَ ولمّا بخلْنَ هبّتْ رياحُ
هذا نقابٌ ، وهـذا شعرٌ ، وهذا وشاحُ
فانصبَّ نورٌ وطيبٌ على القلوبِ انصبــابا

*

كمْ للجمال مزايا وكمْ له من سجايا
لولاكِ يا ريحُ كانتْ بين الزوايا خبايا .

وفي صباح (أحـد) عليل النسمات ، مشرق القسمات ، شق ابراهيم صفوف الغيد المائسات في (شارع يافا) بالقدس المحتلة ، ومر باسراب يملأن دروب العشاق نداً وطيوباً ، وقلوب المعاميد جراحاً وندوباً ، فاستثاره هـذا المشهد الفاتن ... وصوره بقوله :

اليوم يوم (الأحدِ)　　ومهرجانُ البلدِ
الزهرُ في كلِّ يدِ
حِسانُهُ وَاكبدي　　مثلُ طيور الغَرَدِ
يا مرحباً بـ (الاحدِ) .

وفي عهد دراسة شاعرنا في الجامعة الاميركية ببيروت لقيَ حسناءَ اسمها (نزيهة أدهم) فعلق بحبها ، وأنشد فيها غزلاً منه :

(نزيهةُ) ليس للمنديلِ　　فيما بيننا حاجهْ
وإن سرَّكِ أن يبقى　　فأنوارُكِ وهّاجهْ
لأنت حمامةُ الاسلا　　م شادية ودرّاجهْ
فيا مَنْ تأمرُ الحسن　　فيلقى دونه تاجهْ
لقد قطّعتِ بالدلِّ　　عُرى قلبي وأوداجهْ .

وفي عام ١٩٢٨ عاود ابراهيم حنينه الى (م . ص .) فنظم بلسانها قصيدة تخاطب فيها ابراهيم بعنوان (الحبيب الذاهل .) وينبض كل حرف من حروفها بأماني محبوبته ... التي هي أمانيه ... وبأحلامها التي هي أحلامه ... وفي هذه القصيدة يصوِّر شاعرنا هيامه بغادة كفر كنه التي خلّف حبها في قلبه جمرات حامية ، وجراحات دامية ، واكبتْ ابراهيم الى قبره :

قمْ حبيبي واطفىء المصباحا　قد أباح الهوى لنا ما أباحا
حبذا الاعتناقُ إنْ كانت الظلمةُ ستراً من دونه ووِشاحا
تحبسُ العينَ عن مـلذّة مرآهُ ولكن تسرِّحُ الأرواحا

قمْ حبيبي واطفىء المصباحا

رقَدَ الكونُ غير تلك العيونِ في السماوات ِ ساهرات الجفونِ
لا تخفْها ، فلن تبوحَ بسرٍ وسواها يُثيرُ سوءَ الظنونِ
وأراها أحنى وأوفى من الأهلِ ، وكمْ بين أهلنا من خؤونِ ..
لا تخفْها ، وانظرْ لها باسماتٍ مبدياتٍ لنا وجوهاً وضاحا

قمْ حبيبي واطفىء المصباحا

كمْ سهرنا من قبل ليلاً طويلاً فشكا الصمتُ فيه منّا العويلا
وبغى البينُ أشهراً لا يُبالي ما نقاسيه صبوةً ونحولا
فالتقينا ، إن اللقاءَ قصيرٌ فانتهزه وخلِّ عنك الذهولا
ولْنودّعْ تلك الهمومَ اللواتي يتوثّبْنَ في الدُّجى اشباحا

قمْ حبيبي واطفىء المصباحا

هل نسيتَ الأسفارَ والاخطارا يا حبيبي وكيف جئنا فرارا
غفلةُ الناس مرةً نعمةُ الحبِّ ، ويا ليتها تكونُ مرارا
ويلك اسمعْ قلبَ الزمان فقد دقَّ ثلاثاً لا تُستردُّ قصارا
ليَروعنّكَ الصباحُ اذا لاحَ قريباً ، فلا تقلْ كيف لاحا

قمْ حبيبي واطفىء المصباحا

ونظم ابراهيم قصيدة خاطب فيها (م. ص.) بعنوان (اغفري لي .) وفيها يتلمّسُ الصفح والغفران لا تهامها إيّاه بالغدر ... ويعزو تلك الاتهامات الى إرهاصات افقدته وعيه وصوابه ، والى غيبوبة أملتْ عليه هذاذيَ واتهامات لم يكن له يدٌ في دفعها :

اغفري لي اذا اتهمتُكِ بالغدرِ فقد كنتُ غائباً عن صوابي .
اغفري لي ، لعلَّ ما كان منّي صرخة الهول عند مرأى عذابي
أو صدى اليأس رجَّعته ضلوعي أو بكائي على أماني الشبابِ
لمْ تكوني كما زعمتُ ، ولكنْ هالني ما قرأته في الكتابِ .
ولعمري رأيت منكِ وفاءً لم يكن فيه ذرّة لارتيابي
فاغفري لي ما قلتُه في جنوني وتعاليْ أشرحْ اليك مصابي

. . .

رُبَّ صرحٍ ممرّدٍ من أمانيّ أظلَّ النجوم تحت جناحه
قد نَمَتْ حوله الأزاهيرُ شتّى وسقاها الهوى علالة راحهْ
فنزلناه آمنين زماناً نجتني من وروده وأقاحِهْ
لم تحرّكْ منه العواصفُ ركناً ولكم خاب مثلها في كفاحه .

. . .

ثم كانتْ يدٌ ، سأسكتُ عنها هدّمتْهُ الى سواءِ الترابِ
أينَ تلك السماء ؟ هل كان ذلك الصرح فيها مشيّداً من سحابِ ؟

. . .

اغفري لي فانّ أشقى المحبّين محبٌ حياته ذكرياتُ
أينما كنت هيَّجَ القلبُ ذكرى صوّرتها آثارُنا الباقياتُ
ما هنا ؟ انها رسومُ دموعٍ ، وهنا ؟ آه انها قبلاتُ
وهنا ؟ طائرٌ يُعيدُ حديثاً لم تغبْ عنه هذه الكلمات :
يا حياتي ، لا تغضبي ، وتعالي عانقيني واقصري من عتابي
حسب قلبي عذابه ، فاغفري لي يا حياتي فقد لقيتُ عقابي .

وحمل اليه صديق رسالة طويت على ذكريات حب دفين ... ذكريات (م. ص.) تلك الحسناء التي أحبّها ابراهيم بكل جوارحه ، وتمنّى على شقيقه أحمد أن يسهّل كل صعب في لقاء الحبيبين ، ويتجاوز تقاليدَ محنّطة باليـة ... خلّفها الجهل المطبق ... والتعصب الذميم ...

(أخي) وحبيبي كنت أرجوك مسعدا يسامحك الرحمن ، ما كنتَ مسعدا
ألمْ تَرني في (مصر) أطلبُ شافياً ؟ . وراعك اشفائي على هوّةِ الردى ؟ .
ألمْ ترني في مضجعي متقلبـاً ؟ . أقلّبُ في الأفلاكِ طرفاً مُسهّدا ؟ .
ومن عجب ... انّا شبيهان في الهوى بمن أنت تهوى ، هل أطقتَ التجلـّدا ؟ .

لكنّ أحمد وهو الأخ العطوف الذي يفيض رقة وعذوبة ، أصمّ أُذنيه عن شكوى ابراهيم ولم يحفل بها ، فأمضى شاعرنا سحابة العمر في غمّ وترويـع ، إذ أفلت طير الصبا من يده ، وولّى بعيداً عن عالم آثم ظالم :

طيرُ الصبا ولـّى وكان لي جار
قلت له : « هلاّ تعود للدار ؟ . »
فقال لي : « كلاّ كلاّ ! » وطار ...
أظنـّه مـلاّ مني الجوار .

. . .

خلـّفني ابكي عهـدَ الهوى
خُلعتُ من مُلكي عرشي هوى
عـاش على الفتكِ قلبٌ غوى
واليوم في ضَنكِ واهي القوى

قال (أبو سلمى) زينُ اصحابي :
« صِباكَ قد همّا خلّ التصابي ? »
فهاجَ لي غمّا أقتل مما بي
قلتُ : « نعم حتما وشابَ أحبابي . »

ولنعدْ الى الجواب الذي أعـدّه ابراهيم شعراً للرسول الذي نكأت رسالته جراحات حبّ دفين ، وفي ذلك الردّ تلمحُ استسلام ابراهيم لليأس ، ودفنـه أمانيه ولهوه ، وأغاريده وشدوه ، في اعماق قلبه :

جئتَ تتلو عليَّ صفحة مـاضٍ متنها الحبّ والأسى بين صحفي
صاحِ دعْها ، وخُذْ سواها فإني قـد تبيَّنتُهـا لأول حرفِ

صاحِ دعْها ، فقد دفنتْ أمانيّ ولهوي يا حسرتاه وقصفي
وَخَلَتْ أضلعي فأمسى خَليّاً غزلي في هوى الحسانِ ووصفي
وليالٍ ظفرتُ فيهـا من الدهر — على بخله — بنعمة عطفِ
ساهرٌ في ظلامها أقبسُ النورَ لقلبي للثمِ خَدٍّ وكفٍّ

وفمٍ كلما شكا ألَمَ الوجد تَعَلَّقتُهُ بقطفٍ ورشفِ
وجفونٍ ما بين قتلٍ بعنفٍ أنا منها وبين قتلٍ بلطفِ
صاحِ يكفي ... فقد تولّت ليالٍ شيَّعتْها المنى بربّكِ يكفي .

سفح الكرمل : وتناهى الى ابراهيم أن (م. ص.) تقطن غرفة في سفح (الكرمل) فخفّ الى (حيفا) المغصوبة ، خفيفاً طائراً ، وراح يفتش عن الوكن الذي أظلّ سقفه محجة هواه الأول ... لكنه ألفى العشّ خلواً من البلبل الغرّيد ... فعاد يجرّر ذيل الاخفاق ، وأنشأ يقول :
خَلّفتُ (قلبي) فوق سفح (الكرملِ) حيرانَ يسأل عنكِ أهلَ المنزلِ .

خلّفته يهفو على عُرفِ الهوى في شكلِ طيرٍ بينهم متنقلِ
لم يعلموا ما سرّه ، فاذا بكى حسبوه يضحك للربيعِ المقبلِ .

وعاودَ ابراهيمَ رسيسُ حبّه الأول للحسناء الدمشقية التي عرفتها جنائن الجامعة زهرة فوّاحة الشذا ، معطّرة الأرج ، فبعث اليها بأبيات رقيقة تفيض عُتباً وهُياماً ، وشوقاً وغراماً :

أين (الرسالاتُ) والشوقُ ؟ فالجوابُ تأخّرْ .
كم قلتِ : « شوقي كثير . » أظنُّ (شوقي أكثر) .
أسائل البدرَ حيران عنكِ إن هو أسفرْ .
ذكرتُ وجهَكِ فيه والشيءُ بالشيءِ يُذكرْ .
كوني بودّكِ كالبدرِ فهو يخفى ويظهرْ .

وعلم ابراهيم أنّ (م. ص.) جاذبت غيره حبل الودّ والوصال ، فصالَ وجال ، ولاذ بالصمت على مضض ... وراح يداوي ندوب قلبه ، وجراحات حبّه ، بالشعر ... دواء العشاق المعاميد ، وعزاء العباقرة المظلومين في دنياهم ... وأرسل الى (م. ص.) قوله :

الى (الحبيبِ) الذي فازَ غيرُنا بوصالهْ .
ولم نَفُزْ منه إلاّ بصدّه ودلالهْ
ومَنْ تعلّم منه الصدودَ طيفُ خيالهْ
هلاّ تجرّبُ شيئاً من الهوى واحتمالهْ ؟ !
عساكَ تعرف ما قد عرفتُ من أهوالهْ !
عساكَ تسهدُ ، افديك، ليلةً من طوالهْ .
لكن أراكَ سعيداً خلٌّ (الشقيّ) بحالهْ

وفي صباح يوم معطـّر النسمات ، مشرق القسمات ، لقي ابراهيم غانية لعوباً زيـّنت شعرها المرسلَ على كتفيها ، بشريط أزرق مُغرٍ ، فبدت الحسناءُ فتنةً للناظرين ومن توّه أنشأ يقول :

روحي فداءُ عصابة زرقاءِ   لـمّتْ شعورَ مليحةٍ حسناءِ
ما زيـّنتكِ ... وانما زيـّنتِها   بجوارهـا لجبينكِ الوضّاءِ
ودنوّها من مُقلةٍ مكحولةٍ   فتـّانةٍ ، فتـّاكةٍ ، حوراءِ
إنّ الجمالَ اذا تجمـّع شملُهُ   فالويلُ كل الويلِ للشعراءِ ..

خاتمة المطاف : هذه أنفاسٌ شذّية الفوح أرسلها ابراهيم في سربٍ من الغيـد الفاتناتِ ، طارحنه الوجدَ والصبابات ، فاستسلم ابن ربيعة (الثاني) للهوى الفضّاح، والغيد الملاحِ ، وحمل قيثارة الغزل والتشبيب ، في الحسان الرعابيب ، مُداويـاً ندوب قلبه ، وجراحاتِ حبه ، بأناشيد خالدة خلود أرز لبنان ، يفنى الزمان ولا تفنى جدّتها ، أو تزول روعتها .

لقد كان (أبو جعفر) شعلة من الذكاءِ والألمعية،ومنارة من الوحي والعبقرية، تلاقيا في إهاب جسم ضامر فاحترق باللهيب ، وَخلـُدَ مع النور .

يا روح ابراهيم المتعالية فوق الهيولي ، السابحة في فضاء اللانهاية .

أطلـّي علينا من عليائك؛ واسكبي على قلوبنا بسمة من بسماتك اللطيفة العذبة.

وسلام لكِ :

(جثة) هامدة في لحدك .

و (نفساً) خالدة الى جوار ربّكِ .

و (أخلاقاً) رضيّة يذكرها اخوان ابراهيم ما كرّت السنون وتتالتْ القرون .

فهرس

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

الثمن : ٢٥٠ ق.ل.
٣٠٠ ق.س.